الشعر العباسي

جامعة الانبار / كلية التربية الأساسية في حديثة ،

قسم اللغة العربية – المناهج الدراسية .

الوقت : ساعتان .

اسم المادة بالعربي : الشعر العباسي

اسم المادة بالإنكليزية : Abbasid poetry

((المستوى الدراسي الثالث / الفصل الأول))

أ.د. محمد عويد ساير

فهرست المحاضرات .

المحاضرة الاولى : الحياة السياسية
المحاضرة الثانية : الحياة الاجتماعية
المحاضرة الثالثة : الثقافة / الحركة الفكرية
المحاضرة الرابعة : الأغراض الشعرية
المحاضرة الخامسة : التجديد في الشعر العباسي
المحاضرة السادسة : أعلام الشعراء
المحاضرة السابعة : : بشار بن برد
المحاضرة الثامنة : ابي نؤاس
المحاضرة التاسعة : ابو تمام
المحاضرة العاشرة :إبن الرومي
المحاضرة الحادية عشرة : أبو العتاهية
المحاضرة الثانية عشرة : البحتري
المحاضرة الثالثة عشرة : العباس ابن الاحنف
المحاضرة الرابعة عشرة : المتنبي
المحاضرة الخامسة عشرة : الموضوعات الشعرية الجديدة

– مصادر الدراسة :

- الجاحظ، البيان والتبيين، (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨).

- شوقي ضيف، العصر الجاهلي (القاهرة، دار المعارف ١٩٦٠)
- طه حسين، في الأدب الجاهلي (القاهرة، دار المعارف ١٩٥٨)
- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (دار المعارف، مصر ١٩٦٢)
- يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه (بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٧٩)
- محمد النويهي، الشعر الجاهلي، جزآن (القاهرة).
- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني (دار الكتب والهيئة المصرية، مصر ١٩٢٧وما بعدها)
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر (القاهرة ١٩٦٦).
- ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف بمصر ١٩٦٠.
- أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي في العصر الأموي (مصر ١٩٤٥).
- شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي (دار المعارف بمصر ١٩٥٩)
- طه حسين، حديث الأربعاء، ج١ (مصر ١٩٥٣).
- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، العصر العباسي الثاني (دار المعارف – القاهرة).
- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزآن (٢، ٣)
- نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي (القاهرة ١٩٦١)
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٥٦)
- زكي مبارك، المدائح النبوية (القاهرة، دار الكتاب العربي ١٩٦٧)
- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة القاهرة ١٩٣٩)
- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٦–١٩٦١)
- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (ط محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩، نشر دار الكتاب العربي، بيروت).

المحاضرة : ١

الحياة السياسية (١٣٢هـ ٦٥٦هـ)

تعدّ هذه الثورة نهاية الثورات الكثيرة التى نشبت ضد بنى أمية، وهى ثورات أراد بها أصحابها إلى الإصلاح الاجتماعى، ومنهم من كان يتخذ إلى ذلك طريق الرّفق على نحو ما هو معروف عن جماعة الفقهاء، وأكثرهم كان يتخذ طريق العنف يريد أن يمحو سلطان الأمويين محوا على نحو ما كان يريد ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ويزيد بن المهلب. وقد شهر هؤلاء الثائرون السلاح فى وجوههم مرارا، كانت تتعرض فيها دولتهم للخطر أيما تعرض غير أنهم استطاعوا دائما أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحارا من الدماء، متخذين من القضاء على كل ثائر وأنصاره نكالا لكل من يحاول الثورة على نظمهم السياسية والاجتماعية.

وكانت تنضم إلى كل هذه الثورات فئات من الموالى الذين اضطهدهم بنو أمية، وحرموهم المساواة بالعرب فى الحقوق، مخالفين نظرية الإسلام وما يدعو إليه من التسوية المطلقة بين العرب وغير العرب فى الضرائب وغير الضرائب وقد احتملوا فى ذلك ألوانا من البؤس الذى يطاق والذى لا يطاق. فكان طبيعيّا أن تكثر مطالبتهم بالعدل الاجتماعى وأن يطمحوا إلى حكّام جدد يقرّون فيهم مبادئ الإسلام الذى يوجب المساواة بين أفراد الأمة فى جميع الواجبات المالية وغير المالية والذى ينكر الظلم أشد الإنكار، كما ينكر أن تستغل طبقة من الأمة بعض الطبقات فيها لمآربها العاجلة. وقد وضعت كثرتهم آمالها فى أبناء على وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالى بحيث أصبحوا شيعتهم، غير أنهم فقدوا فى أسرة على وأبنائه وأحفاده الشخص الحصيف الجرئ الذى يستطيع تنظيم ثورتهم بحيث يكتب لها النجاح.

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك قد ولى الخلافة، وكان مدمنا للخمر منادما للفسّاق والمغانى، وكأنما كان إشارة الوقت لما أدرك الخلافة الأموية من ضعف وفساد، فاستغل ذلك أيما استغلال دعاة أبى سلمة فى خراسان، فقد بدا فى وضوح فساد الحكم كما بدا فساد النظم الاجتماعية التى رزح الموالى تحت أثقالها الباهظة. وتراءى حينئذ فى الأفق أن سلطان البيت الأموى يؤذن بالسقوط، لا لما انتشر فيه من فساد الترف فحسب، بل أيضا لما نشب من خلاف عنيف بين أفراده، إذ لم يلبثوا أن قتلوا الوليد وأخذوا يتطاحنون على عرش الخلافة تطاحنا مرّا، وتغلّب بأخرة مروان بن محمد، غير أنهم نابذوه وثاروا ضده، وانتهز الخوارج الفرصة، فنازلوه فى الموصل وفى اليمن والحجاز.

بناء بغداد ثم سامرّاء

رأى أبو جعفر المنصور أن يبتعد بحاضرة دولته عن الكوفة مركز العلويين من قديم حتى يأمن على نفسه مما قد ينشب فيها من ثورات، وحتى يعزل جنده عن أهلها فلا يفسدوهم. وكان مما دفعه إلى ذلك ثورة الراوندية، وهم نفر من شيعته كانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح، وحدث أن اجتمعوا بالهاشمية هاتفين بأن المنصور ربهم، فلما خرج إليهم ينهاهم عن سوء معتقدهم تدافعوا إليه كالموج، وكادوا يفتكون به لولا دفاع معن بن زائدة الشيبانى عنه وحسن بلائه .

اعتزم المنصور اتخاذ تلك القرية المسماة ببغداد عاصمة الدولة، وقد اختلف الباحثون فى أصل اسمها، فقال فريق إنه اسم فارسى وقال آخرون إنه اسم آرامى ، وسماها المنصور «دار السلام» أخذا من قوله جلّ وعزّ، (لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) وبهذا الاسم كانت تضرب النقود العباسية. وقد كانت منطقتها موئلا لحضارات مختلفة إذ كانت تلتقى بها قبل الإسلام الحضارات: الكلدانية والفارسية والآرامية، وكانت تنبث حواليها أديرة كثيرة.

وعنى المنصور عناية بالغة ببناء حاضرته، بل قلعته الحصينة، فأحضر لها المهندسين والفعلة والصناع من أطراف الأرض، ومثّل لهم صفتها التى فى نفسه، وهى أن تكون مدوّرة على شاكلة المدن الفارسية والآشورية القديمة، ووضع أول لبنة فيها بيده سنة ١٤٥ .

ويمكن إجمال وصفها فى أنه كان يستدير حولها خندق كبير وسوران شاهقان عريضا الجدران وراءهما سور داخلى مبالغة فى تحصينها. وفتح فى كل سور أربعة أبواب متساوية الأبعاد: باب الشام فى الشمال الغربى ويقابله باب البصرة فى الجنوب الشرقى على الصراة التى تأخذ من الفرات وتمضى حتى تتصل بدجلة، وباب خراسان فى الشمال الشرقى بحذاء دجلة ويقابله باب الكوفة فى الجنوب

النظم السياسية والإدارية:

كان تحول الخلافة من دمشق إلى بغداد على سواعد الجيوش الخراسانية إيذانا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والإدارية للدولة العباسية، فقد قامت فى المجال الفارسى وعاشت تتنفّس فيه. وقد بلغ الفرس قبل الفتوح الإسلامية مرتبة عالية فى تنظيم الحكم، حتى لنرى العرب بعد فتح ديارهم يسارعون إلى التأثر بهم فى هذا التنظيم، فقد روى الرواة أن عمر بن الخطاب اتخذ ديوان العطاء أو ديوان الجند، مقتديا فيه بصنيع الساسانيين، يقول ابن الطقطقى: «لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة، وهى خلافة عمر رضى الله عنه، رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئا يسمونه ديوانا جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شئ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل. فتنبّه عمر رضى الله عنه، وقال: صفه، فوصفه المرزبان. ففطن عمر لذلك ودوّن الدواوين وفرض العطاء (١)».

وكان هذا الديوان الأصل الذى تأسست عليه الأداة الحكومية للخلافة الإسلامية. وارتضى عمر لولاته فى الشرق أن يستعينوا فى جمع الخراج بنفس عمّال الفرس الذين كان يستعين بهم الساسانيون فى جمع الضرائب وهم المسمون بالدهاقين لخبراتهم التامة بكل الشئون المتصلة بهذا الجمع، وخاصة من حيث تقدير الخراج.

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا النظم الساسانية تنتقل بحذافيرها فى كل شئون الحكم، وكأنما أصبح الخليفة العباسى ملكا ساسانيّا، فهو يحكم حكما مطلقا وهو حكم ينتقل بالوراثة ويطبعه الدين كما كان يطبع الحكم الساسانى، إذ كان الساسانيون يعدون أنفسهم رؤساء للدين وحماة له وحرّاسا. وكان العباسيون من بيت النبوة، فكانوا يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سندا لهم فيما يزعمون، وهو زعم باطل، لأن الولاية العامة على المسلمين لا تورث، وإلا ورثها العباس عم الرسول بعده، ولم يرثها أبو بكر الصديق، وحتى الأموال والأعيان التى تركها الرسول لا تورث، لما صح فى الحديث النبوى من قوله عليه السلام: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة».

ومهما يكن فقد أقام العباسيون خلافتهم على أنهم أحق الناس بإرث الرسول، ومضوا يحيطون أنفسهم بهالة كبيرة من التقديس كان لها أسوأ الأثر فى خنوع الناس وخضوعهم للظلم والفساد، ونعجب أن نرى الفقهاء والأتقياء الذين كانوا يعارضون بنى أمية ويعدونهم دنيويين ظالمين ينصاعون انصياعا أعمى للعباسيين ويعدّونهم رؤساء شرعيين للأمة من الناحيتين الزمنية والروحية.

أحداث مختلفة:

لم تطل مدة أبى العباس السّفّاح إذ سرعان ما توفى سنة ١٣٦ وخلفه أبو جعفر المنصور، وهو يعدّ المؤسس الحقيقى للدولة العباسية، فهو الذى أصّلها «وضبط المملكة ورتّب القواعد وأقام الناموس» ولم يكد يتسلم مقاليد الحكم حتى ثار عليه عمه عبد الله فى شمالىّ سوريا وكان يقود جيشا ضخما لحرب البيزنطيين،فوجه إليه المنصور أبا مسلم الخراسانى فى جيش جرار، فهزمه هزيمة منكرة فرّ على إثرها إلى البصرة عند أخيه سليمان بن على واليها، فأخذ يستعطف له هو وأخوه عيسى ابن على والى الأهواز المنصور حتى رضى أن يكتب له كتاب

أمان، وتولى ابن المقفّع كتابته فشدد فيه العهد والميثاق على المنصور حتى أحفظه عليه. ومازال المنصور يمكر بعمه حتى وفد على بابه، فحبسه مدة إلى أن مات فى حبسه .

ولم يكن همّ المنصور بعد القضاء على ثورة عمه إلا أخذ أبى مسلم الخراسانى وكان قد عزم بعد هزيمته لعبد الله بن علىّ أن يعود إلى خراسان، وخشى المنصور أن تحدثه نفسه بخلعه حين يرجع إلى موطنه، إذ كان كل منهما يجد على صاحبه موجدة شديدة، فكتب إليه بالقدوم عليه، وخشى أبو مسلم مغبة قدومه، فكتب إليه بالطاعة وأنه متوجه إلى خراسان. وقلق المنصور، وكان مدبرا داهية، فكتب إليه يؤكد له حسن رأيه فيه ذاكرا خدماته لدولتهم، وأرسل له رسلا يزينون له المثول بين يديه، فما زالوا به حتى قدم عليه، وكان بالقرب من المدائن، فلما دخل إليه لقيه بالتوبيخ والتقريع، ولم يلبث أن قتله، وبادر إلى من كانوا معه من القواد فأعطاهم جوائز سنية وفرّق فى جنده أموالا كثيرة، فرضخوا للواقع ورضوا به وغضب أتباع أبى مسلم فى خراسان حين علموا بمصيره، ولم يلبث أن ظهر بينهم سنباذ، فقادهم معلنا أن أبا مسلم لم يمت وإنما اختفى وسيعود ليرفع الظلم وينشر العدل، وتابعه كثيرون مكونين فرقة المسلمية أو الخرّمية ، وقدم بهم إلى الرّى فغلب عليها، والتقى به المنصور بن جمهور العجلى فى جيش كثيف، فقضى عليه وعلى ثورته ، ولكنه لم يقض على عقيدة فرقته، فقد أخذت تسرى فى نفوس كثير من الخراسانيين والايرانيين مختلطة بالعقائد المزدكية.

العصر العباسي الثاني

استيلاء الترك على مقاليد الحكم:

مرّ بنا فى العصر العباسى الأول كيف هيّأ العباسيون لقيام دولتهم عن طريق الدعوة السريّة لإمام هاشمى يخلّص الموالى فرسا وغير فرس من حكم بنى أمية الجائر، محقّقا لهم المساواة المشروعة-بحكم الإسلام-بينهم وبين العرب فى جميع الحقوق الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. وسرعان ما أقبلت الجيوش الخراسانية مكتسحة كل ما لقيها من مقاومة للدولة الأموية حتى قضت عليها قضاء مبرما.

وأعلن العباسيون أنهم أصحاب الحق الشرعى فى الحكم والخلافة، وبذلك استأثروا بها من دون أبناء عمهم العلويين، مما جعل كثيرين منهم يثورون عليهم منوال العصر، كما جعل أنصارهم يدعون لبيتهم العلوى سرّا كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فى حين مضى العباسيون يعلنون أنهم أصحاب حق إلهى فى الحكم والسلطان وتمادوا فى حكم استبدادى أشد ما يكون الاستبداد محيطين أنفسهم بكثيرين من الحجّاب، أما الشعب فلم يزد فى رأيهم عن أن يكون أدوات مسخرة لجمع الخراج والضرائب الفادحة، مما دفع لقيام ثورات إيرانية مختلفة، على نحو ما صورنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول. وحقّا كانت أعلى المناصب وأكثرها فى أيدى الفرس، وكان منهم أكثر الوزراء والقواد، غير أن العباسيين نكبوهم نكبات متوالية، على نحو ما هو معروف عن نكبة البرامكة ونكبة بنى سهل. ونشب من جرّاء ذلك عداء شديد بين الفرس والعرب. فالعرب يريدون استرداد مجدهم فى العصر الأموى والفرس لا يكتفون بما لهم من مجد حادث فى الدولة، وكأنهم يريدون أن يستعيدوا مجد دولتهم الساسانية القديمة ويمحقوا العرب محقّا، مما أعدّ لظهور تيار شعوبى بغيض رافقه تيار إلحاد وزندقة لا يقلّ عنه عنفا ولا محاولة لهدم الإسلام والعروبة جميعا. وفى أثناء ذلك كانت الثورات مضطرمة في شرقى الدولة، وكلما خمدت ثورة اندلعت أخرى،

وكان آخرها اندلاعا ثورة بابك الخرّمى فى آذربيجان التى ظلت نحو عشرين عاما والتى كلفت الدولة كثيرا من الجيوش إلى أن سحقها المعتصم وقواده سحقا.

وقد أخذ المعتصم حينئذ يفكر فى عنصر جديد يعتمد عليه فى حروبه سوى الفرس، فثوراتهم لا تنقطع، وأمانيهم فى إحياء مجدهم القومى لا تخمد، واستظهارهم للشعوبية والزندقة لا تهدأ فورته، وهداه تفكيره إلى الاعتماد على عنصر من الرقيق اشتهر لعصره بالصبر تحت ضلال الرماح، مع حذقه بالرمى يمنة ويسرة ومقبلا ومدبرا، وهو الرقيق التركى الذى كثر توافده على بغداد والعراق، فأخذ يستكثر من شرائه وطلبه من سمرقند وفرغانة وأشروسنة إلى أن بلغت عدّته ثمانية عشر ألفا (١)، وكل يوم يزيد، حتى ضاقت به بغداد وشوارعها. وكان جمهور هذا الرقيق بدوا جفاة فكانوا يركبون الخيل ويركضونها فى الشوارع فتطأ بعض الشيوخ والأطفال والنساء، مما اضطر المعتصم أن يبنى لهم مدينة سامراء (٢) شمالى بغداد، وانتقل معهم إليها، وظلت حاضرة للخلفاء حتى أواخر عهد المعتمد سنة ٢٧٦ للهجرة.

وكان ذلك تحولا خطيرا فى تاريخ الدولة العباسية، فقد كانت تعتمد كل الاعتماد على الفرس وكانوا أصحاب مدنية وحضارة فبثّوهما فى الحياة العربية، وأعدّوا لنهضة حضارية واسعة تستقى منهم ومن موارد الإسلام والعروبة ومن الثقافات الأجنبية المختلفة، وخاصة الثقافتين اليونانية والفارسية. أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا مدنية ولا حضارة، إذ كانوا بدوا لا يعرفون الصناعة ولا الزراعة ولا التجارة ولا الفنون ولا الآداب ولا قواعد الملك والسياسة، إنما هم سكان صحار وقفار وحرب وجلاد وبأس ومراس، وقد صورهم الجاحظ تصويرا دقيقا فى رسالته التى تحدث فيها عن مناقبهم قائلا: «الترك أصحاب عمد (خيام) وسكان فياف وأرباب مواش، وهم أعراب العجم. . . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات والطب والفلاحة والهندسة، ولا غرس ولا بنيان ولا شقّ أنهار ولا جباية غلاّت، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصّيد وركوب الخيل ومقارعة الأبطال وطلب الغنائم وتدويخ البلدان، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفة، وكانت لهذه المعانى والأسباب مسخّرة ومقصورة عليها وموصولة بها، أحكموا ذلك الأمر بأسره وأتوا على آخره، وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذّتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم، فلما كانوا كذلك صاروا فى الحرب كاليونانيين فى الحكمة وأهل الصين فى الصناعات. . .وكآل ساسان فى الملك والرياسة».

ويبدو أن المتوكل تنبّه-منذ استيلائه على الحكم-إلى خطورة ازدياد النفوذ التركى، مما دفعه إلى التخلص سريعا من إيتاخ، وكان قد صار إليه أمر الجيش والأتراك والمغاربة والموالى وديوان الخبر أو البريد والحجابة والقيام على دار الخلافة، وكأنه نائب للخليفة. بل لكأنما أصبح الخليفة ولا سلطان له، مما جعل المتوكل يوحى إلى بعض أوليائه أن يشيروا على إيتاخ بالاستئذان للحج، وما إن خرج من سامراء وأبعد فى الطريق إلى مكة حتى عزله المتوكل عن الحجابة وولاها وصيفا التركى (١). وهى سياسة سيتّبعها الخلفاء بعد المتوكل أن يضربوا قواد الأتراك بعضهم ببعض. وعاد إيتاخ من الحج ودخل بغداد فقبض عليه حاكمها بأمر من المتوكل وأودعه غياهب السجون مقيدا بالحديد إلى أن توفى لسنة ٢٣٥. ولكن المتوكل لم يسدّد للترك ضربة قاضية، بل أخذ يراوغهم، مما جعله يضيف بغا الكبير إلى وصيف فى الحجابة. وتتوالى السنوات وهو ضيّق بقادة الترك ويفكر فى التخلص منهم جميعا ويهديه تفكيره فى سنة ٢٤٣ أن يترك سامرّاء ويتخذ دمشق حاضرة له، حتى يصبح بمنأى عن الترك وشرورهم، ويشخص إليها فى ذى القعدة، ويبدو أن فكرته ذاعت فى الناس مما جعل يزيد بن محمد المهلبى ينشد من قصيدة طويلة (٢):

أظنّ الشام تشمت بالعراق ...إذا عزم الإمام على انطلاق
فإن تدع العراق وساكنيها ...فقد تبلى المليحة بالطلاق

تدهور الخلافة:

رأينا الترك يسيطرون على أداة الحكم بعد مقتل المتوكل فى السنوات الثمان التى تلته، ثم منذ عصر المقتدر، إذ كانوا هم الحكام الحقيقيين للدولة، ولم يكن للخلفاء حينئذ أى سلطان، ومن أين يأتيهم السلطان والترك يولّونهم ويعزلونهم بل يسفكون دماءهم وكل ما يأتون من الأمر أو يدعون فإنما هو بتدبيرهم؟ وصوّر ذلك بعض الشعراء لعهد الخليفة المستعين (٢٤٨ – ٢٥٢ هـ)، فقال :

خليفة فى قفص ...بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له ...كما يقول الببّغا

فالخليفة حينئذ كان أشبه ما يكون بببّغاء فى قفص يردّد ما يقوله مخاطبه ولا أمر يملكه، فالأمر كله لحاجبيه: وصيف وبغا، حتى إذا دارت فكرة خلعه بذهنيهما خلعاه، ووليّا بعده المعتز بالله (٢٥٢ – ٢٥٥ هـ) ويروى أنه لما جلس على سرير الخلافة أحضر أصحابه المنجمين وسألوهم كم يظل خليفة للمسلمين؟ وكم يعيش؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال: أنا أعرف من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمره، فقالوا له: فكم تقول إنه يعيش؟ وكم يملك؟ فقال: طالما أراد الترك ذلك، فلم يبق فى المجلس أحد إلا غلبه الضحك . ولم يمكث المعتز فى دست الخلافة سوى ثلاث سنوات إذ سرعان ما خلعه الترك وسفكوا دمه، وولوا بعده المهتدى (٢٥٥ – ٢٥٦ هـ) وكان حسن السيرة ورعا تقيّا اطرح الملاهى وحرّم الشراب والغناء، وكأنما آذت الترك سيرته الطاهرة فخلعوه، وولوا المعتمد (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ)، وكان منهمكا فى اللهو واللذات غير أن أخاه طلحة الذى لقب بالموفق نهض بالأمر من دونه فثبّت الخلافة إلى أبعد حد، وأعاد إليها بحزمه وعزمه وجدّه هيبتها ومكانتها المهدرة، وقد ترك أخاه عاكفا على ملذاته، واحتمل أعباء الخلافة فى البطولة والحرب والنفوذ من المشكلات الصعاب، بحيث أصبح هو الخليفة الحقيقى، أما أخوه المعتمد فلم يكن له من الخلافة سوى الاسم وصوّر ذلك بنفسه قائلا :

أليس من العجائب أنّ مثلى ...يرى ما قلّ ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ...وما من ذاك شئ فى يديه

وتصادف أن توفى الموفق قبل المعتمد بقليل وكان وليّا للعهد، فجعل المعتمد ولاية العهد لابنه المعتضد وكان مثل أبيه بطلا مغوارا، فولى الخلافة بعد عمه المعتمد (٢٧٩ – ٢٨٩)، فأكمل لها ما أحاطها به أبوه من العزة والمهابة، فلم يرتفع للترك فى عهده صوت، وكان اسمه–كما مرّ بنا–أبا العباس أحمد فتلقب بالمعتضد بالله، وفيه يقول ابن تغرى بردى: «كان المعتضد شجاعا مهيبا أسمر نحيفا معتدل الخلق ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد رجالات بنى العباس وشجعانهم، كان يتقدم إلى الأسد وحده»، ويقول: «هو آخر خليفة عقد ناموس الخلافة ثم أخذ أمر الخلفاء بعده فى إدبار» (٢). وخلفه ابنه المكتفى (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ) وكان قصير النظر فاتخذ ولى عهده أخاه المقتدر وهو لا يزال صبيّا، فولى بعده الخلافة (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ)، وسنه ثلاث عشرة، فكأن كل ما أحكمه جده الموفق وأبوه المعتضد قوّضه فى لحظات، فبمجرد أن تسلم مقاليد الحكم وهو غلام عاد للترك سلطانهم وطغيانهم وعاد معهما الخلع وسفك الدماء، وزادوا سمل الأعين.

ويصور لنا ابن المعتز كيف كان هؤلاء الجباة يبتزون أموال التجار أصحاب الجواهر والأموال العريضة، وخاصة من كانت له معاملات منهم مع الدولة، فقد كانوا يدّعون عليه أن للسلطان عنده ودائع يجب أن يردها، وكانوا لا يزالون يتفنّنون فى تعذيبه:

حتى إذا ملّ الحياة وضجر ...وقال ليت المال جمعا فى سقر

أعطاهم ما طلبوا فأطلقا ...يستعمل المشى ويمشى العنقا

والعنق مشية سريعة، وكأنه يخشى أن يردوه إلى التعذيب، فهو يطير طيرانا. وويل لمن كان يرث عن أبيه ميراثا ضخما، فقد كانوا يحاولون الاستيلاء على ميراثه بطرق شتى، إذ يسجنونه، ويطلبون إليه أن يثبت أنه ابن المتوفى، وما يزالون يضربونه ويلكمونه ويصعفونه، يقول ابن المعتز:

وأسرفوا فى لكمه ودفعه ...وانطلقت أكفّهم فى صفعه

ولم يزل فى أضيق الحبوس ...حتى رمى إليهم بالكيس

وكأننا لم نعد بإزاء دولة تحكم بقوانين الشريعة الإسلامية، وإنما أصبحنا بإزاء لصوص ومختلسين وقطاع طرق. وما إن يجثم عصر المقتدر على صدر الأمة حتى يفسد الحكم فسادا لا حد له، وقد استوزر اثنى عشر وزيرا منهم من وزر له المرتين والثلاث، أولهم ابن الفرات، ويروى أنه حاسب كتّاب العطاء فوجد لهم خيانة بلغت نحو مائة ألف دينار ، ولم يلبث المقتدر أن صادره فى سنة ٢٩٩ واستولى على أمواله وإقطاعاته، فاجتمع له نحو سبعة ملايين من الدنانير ، ومع الشك فى أمانته على هذا النحو نراه يعود إلى الوزارة حتى إذا توفى فى سنة ٣١٢ وجد له من الدنانير ما يزيد على عشرة ملايين ولا نصل إلى أواخر العصر، حتى يتغلب كثير من الحكام على ولاياتهم، فتصبح فارس والرّىّ وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بويه، وخراسان فى يد نصر بن أحمد السامانى، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم، وكرمان فى يد محمد بن إلياس، والموصل وديار ربيعة وبكر ومضر فى أيدى بنى حمدان، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريدى، واليمامة والبحرين فى يد أبى طاهر الجنّابى القرمطى، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج الإخشيد، والمغرب وإفريقية فى يد القائم بأمر الله ابن المهدى الفاطمى المتلقب بأمير المؤمنين، والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر الأموى. ولم يبق فى يد الخليفة سوى بغداد، واستولى عليها منه–كما أسلفنا– البويهيون وخلعوه، وولّوا المطيع لله، وأصبحوا هم الذين يولّون الوزراء والقضاة والولاة وأصحاب الشرطة والحسبة، ولم يعد للخليفة سوى سلطان اسمى وأن يدعى له على المنابر، وخفّضت نفقاته، وقرّرت له نفقة طفيفة.

وليست هذه الكوارث كل ما حاق بالخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى، فقد نشبت ثورات كثيرة استنزفت موارد الدولة، وخاصة ثورتى الزنج والقرامطة، أما الزنج فقد استطاع الموفق لعهد أخيه المعتمد أن يقصى بعد جهاد عنيف عليهم وعلى ثورتهم قضاء مبرما.

٤ – ثورة القرامطة

مرّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن العلويين كانوا فرقا، وظلت هذه الفرق نشطة فى العصر العباسى الثانى، وأهمها فرقة الزيدية التى حملت السلاح دائما فى وجوه العباسيين، ثم فرقة الإمامية التى كانت تعيش على التقية وتعمل سرّا ضد العباسيين، وقد انقسمت مبكرة إلى اثنى عشرية آمنت بأن الإمامة توالت فى اثنى عشر إماما، آخرهم محمد المهدى المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ للهجرة، وإلى إسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر

الصادق، وكان قد توفى قبل أبيه، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه محمد، لأنها تنتقل حتما إلى الابن الأكبر، حتى لو مات فى عهد أبيه. وأخذت تتكوّن سريعا حول محمد الحركة الإسماعيلية، وكان الذى نظّمها ووضع مبادئها عبد الله بن ميمون القداح، وهو فارسى كان واسع المعرفة بجميع المذاهب والأديان، وأخذ فى سرعة يكوّن حول محمد بن إسماعيل جمعية سرية تعمل على تقويض الدولة العباسية، وكان يستعين على جذب الناس إليه بطرق تتناسب مع كل شخص، فأشخاص يجذبهم بالسحر والشعوذة، وأشخاص يجذبهم بإظهار التقوى والنسك. وكان يزعم أن دينه دين النور الخالص، ودعا كل أعضاء جمعيته إلى الاشتراك فى كل ما يكسبون مقيما بينهم ضربا من الألفة. وبدأ بدعوته فى موطنه بالأهواز، ثم تركها إلى البصرة ومعه رفيقة الحسين الأهوازى، وأحسّ بمطاردة والى البصرة لهما، فهرب مع رفيقه إلى «سلمية» بقرب اللاذقية في الشام، ومن هناك أخذ يرسل دعاته إلى العراق، كما أخذ ينظم الدعوة الإسماعيلية باثّا فيها تعاليم مانوية فارسية وفلسفية يونانية غير بعض تعاليم جلبها من فرق الشيعة الغالية كفرقة الخطابية. ودعا فى قوة إلى فكرة التأويل فى الآيات القرآنية حتى يمكن فهم معانيها الباطنة المستترة أو قل معانيها الخفية التى ترمز إليها من بعيد. وزعم أن تاريخ الأمة ينقسم إلى حلقات، كل حلقة يمثلها سبعة من الأئمة، سابعهم هو الإمام الناطق الذى ينسخ بشريعته ما قبله من الشرائع، أما الأئمة الستة قبله فأئمة صامتون.

وزعم أيضا أن أئمة الدعوة قسمان: أئمة حقيقيون مستورون أو مستقرّون، وأئمة بجانبهم مستودعون وهم رءوس الدعاة المسمون بالحجج، وبذلك أصبح هو نفسه إماما مستودعا، وتبعه على ذلك أبناؤه، ومن هنا جاء الشك فى نسب الأسرة الفاطمية الإسماعيلية التى حكمت مصر نحو قرنين من الزمان، فهل كان أئمتها مستقرين أو كانوا مستودعين؟ وجعل ابن ميمون الدعوة مراتب يصعد فيها التابعون، وهى سبع مراتب، مرتبة للعامة، ومرتبة لمن فوقهم، ومرتبه لمن مرّ عليه عام، ومرتبة لمن مرّ عليه عامان، ومرتبة لمن مرّ عليه ثلاثة أعوام، ومرتبة لمن مرّ عليه أربعة أعوام، ثم المرتبة السابعة، وجعلت المراتب فيما بعد تسعا.

حتى إذا كان موسم الحج لسنة ٣١٧ حدثت الطامة الكبرى إذ وافى أبو طاهر الحاجّ يوم التّروية، وهم يهلّون ويلبّون، وقتل الحجاج قتلا ذريعا فى فجاج مكة وداخل البيت الحرام وهم متعلقون بأستاره، ويقال إنه قتل منهم نحو عشرة آلاف، طرح كثير منهم فى بئر زمزم، وعرّى البيت من كسوته وقلع بابه واقتلع الحجر الأسود وأخذه معه إلى هجر، وظل هناك حتى ردّ إلى موضعه فى عهد الخليفة المطيع سنة ٣٣٩. ونهب جميع التحف التى زيّن بها الخلفاء الكعبة على مر الأزمنة وما كانوا رصّعوها به من الجواهر النفيسة، ويقال إنه كان يجلس على باب الكعبة والحجيج يصرعون حوله فى المسجد الحرام، وهو ينشد مثل قوله:

أنا لله وبالله أنا ...يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ويقال إنه كان زنديقا لا يصلى ولا يصوم ولا يؤدى فرائض الإسلام، مع تظاهره بأنه مسلم وزعمه أنه داعية عبيد الله المهدى بإفريقيا. ولم يحج أحد منذ هذا التاريخ حتى سنة ٣٢٦، خوفا من شره وشر أتباعه من القرامطة، غير أن شرّه لم ينحسر عن العراق، إذ هاجم الكوفة لسنة ٣١٩، وعاود الهجوم عليها فى سنة ٣٢٥ ونازلته جنود الخلافة فى سنة ٣٣٠، ومات فى شهر رمضان لسنة ٣٣٢ بالجدرى بعد أن تقطعت بسببه أوصاله وأطرافه وهو ينظر إليها، وبعد أن طال عذابه ورأى فى جسده العبر. وخلفه أخوه سعيد (٤) بن الحسن الجنّابىّ، وهو الذى رد

الحجر الأسود إلى مكانه بالكعبة، وكان العراق قد دخل فى حكم البويهيين فضعف شأن قرامطة البحرين والأحساء، واضطروا بأخرة إلى الدخول فى طاعة الخلافة العباسية ونبذ عقيدتهم القرمطية.

الحياة الاجتماعية

١ – الحضارة والثراء والترف

لما فتح العرب العراق وإيران والشام ومصر ورثوا ما فى الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما فى الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية، وأخذوا يكوّنون من ذلك ومن تراثهم العربى الخالص حضارتهم الإسلامية، وكان طبيعيّا أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وغلبت على ما كان به من عناصر كلدانية وآرامية، وهى تبدو واضحة فى بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة على شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة.

وقد كشفت حفائر سامرّاء عن طريق بناء الدور والقصور لا فيها فحسب، بل أيضا فى بغداد، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف (١) يفضى إلى فناء واسع يسلم إلى القاعة الكبرى أو الإيوان، وتتناثر فى الدهليز والفناء غرف متجاورات للسكنى والمرافق المنزلية، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة. وبجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغرى ثانوية تعلوها بعض القباب، وأكبرها جميعا قبة الإيوان. وفى الدار حمامات ومجار تحت الأرض وسراديب معدة للسكى، وتكثر الأساطين فى الأفنية، وتكثر الشرفات وتلحق بها بعض البساتين وبعض النافورات والبرك. وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملوّن، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار، وقد يذهّب السقف والأبواب والحيطان وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية والطنانس ومناضد الآبنوس والتحف الثمينة وتماثيل العقيان والجامات المذهبة والأوانى المرصعة بالجواهر.

ولا ريب فى أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسى ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين، وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعا بأسباب النعيم، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق. ومردّ ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد، وطبقات قتّر عليها فى الرزق، فهى تشقى إلى غير حد، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم.

وكانت خزائن الدولة هى المعين الغدق الذى هيأ لكل هذا الترف، فقد كانت تحمل إليها حمول الذهب والفضة من أطراف الأرض، حتى قالوا إن المنصور خلّف حين توفى أربعة عشر مليونا من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم وإن دخل بيت المال سنويّا لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليونا من الدنانير وكانت هذه الأنهار الدافقة من

الأموال تصبّ فى حجور الخلفاء ومن يحف بهم من بيتهم ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين ونسوق من ذلك أطرافا تصور ما آل إليه ذلك من شيوع الإقطاع والثراء العريض فى الطبقة الحاكمة وحواشيها ومن يلوذون بها، فقد روى عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم فى كل عام.

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين، ورسم المهدى لمروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على مدحته ذائع مشهور، وكان يصنع الصنيع نفسه مع المغنين حين يطرب لبعض أصواتهم، وتجاوز رسمه لمروان ابنه الهادى فأعطاه يوما على مدحته فيه مائة وثلاثين ألف درهم ، وأطربه مغن فأهداه سبعمائة ألف دينار. وكان الرشيد بحرا فياضا ما بنى ينهلّ على العلماء والفقهاء من أمثال قاضيه أبى يوسف والأصمعى والكسائى، والأطباء من مثل جبرائيل بن بختيشوع، ويقال إنه صار إليه فى عهده ما يزيد على أربعة ملايين من الدراهم ، وكان يجزل للشعراء والمغنين من نواله، ويكفى أن نعرف أنه وصل سلما الخاسر وحده لمدائحه فيه بعشرين ألف دينار .

١ – طبقات المجتمع

كان يتوزّع مجتمع العصر العباسى الثانى ثلاث طبقات أساسية: طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليسار، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين، ثم طبقة دنيا تشتمل على العلمة من الزّراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق، ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الذمة.

وكانت الطبقة الأولى تغرق فى النعيم، يتقدمها الخلفاء وكانت تجبى إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبى من المكوس على الواردات والصادرات، وعادة كان الوالى يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبيمارستانات ومن بها من الجند والموظفين.

وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليونا من الدراهم، وبلغ دخل جزء منه فى عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفا من الدنانير. وتدهور الدخل فى عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليونا وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار، ويورد الصابى مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهده فى سنة ٣٠٦، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليونا وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفا وثمانمائة وأربعين دينارا وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تنفق سنويّا، وقلما كان يتبقى منها شئ ويقال إنه لما ولى المعتضد (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ) ادّخر من كل سنة من سى خلافته مليون دينار، بلغ ما ادخره تسعة ملايين ، وخلفه ابنه المكتفى (٢٨٩ – ٢٩٥ هـ)، فبلغ بالمدّخر أربعة عشر مليونا. وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب، بل أتلف كل المدّخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنويّا ومما كانت تغلّه الضياع السلطانية الواسعة، حتى قالوا إنه بدّد–كما مرّ بنا فى الفصل الماضى–ثمانين مليونا من الدنانير. ويورد الصابى فى كتابيه: الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتا بما كان ينفق على حواشى الخليفة وداره فى عصر المعتضد والمقتدر (٢٩٥ – ٣٢٠ هـ)، وهى تصور عظم هذه النفقات. فقد كان ينفق على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهريّا وكان ينفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهريّا، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفا، غير ما ينفق على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار، وغير ما ينفق على المماليك والحرس وكانوا يعدّون بالآلاف، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القرّاء وأصحاب

الأخبار والمنجمين والبوقيين والمصحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاّحين فى السفن وأصحاب المشاغل والأطباء، ويقول الصابى إن نفقة ذلك كله وما يجرى مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنويّا. ويقال إنه كان فى الدار لأيام المكتفى عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة، أما فى أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم تسعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وألوف من الغلمان الحجرية (المقيمين فى الحجر)، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس، وكان عدد الفراشين ثمانمائة. ويروى المؤرخون أن الراضى (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ)، عمل على القصد الشديد فى نفقات دار الخلافة، حتى بلغت مع شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار يوميّا.

وقد بدأ العصر بالمتوكل، ويقال إن النفقات لم تبلغ فى عصر من عصور الخلفاء ما بلغته فى عصره، وخاصة فى بناء القصور، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيرى، وكان يجعل فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام، وكان فى الراق مجلس الخليفة، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يحتاج إليه من الشراب. وكان كلما بنى قصرا أتبعه بآخر، حتى بلغت قصوره نحو العشرين، وهى: بركوار (دار الهناءة) والشاه والعروس والبركة والجوسق والمختار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشبداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو واللؤلؤة، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليونا من الدراهم. وكان البرج من أجملها زينة إذ جعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة، وبركة جعل فرشها ظاهرا وباطنا صفائح الفضة، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرّد وتصفر مكللة بالجوهر، وسميت طوبى (من أشجار الجنة). واتّخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالا سبعين عظيمين ودرج عليه صور السباع والنسور. وألبست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليونا وسبعمائة ألف دينار

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفّف عن النصارى حتى لنجده هو نفسه يجعل النفقة فى سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دليل بن يعقوب النصرانى كاتب بغا (٢). وكثر أهل الذمة بعده فى الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة فى سنة ٢٧٢ للهجرة تثور عليهم (٣).

ويعظم أمر أهل الذمة فى أواخر القرن الثالث، إذ يكثر استخدامهم فى الكتابة وفى امور المسلمين فيأمر المقتدر لسنة ٢٩٦ بألا يستخدم أحد منهم إلا فى الطب والجهبذة وأن يطالبوا بلبس العسلى وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم (٤)، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يوميّا إلى طعام مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعا (٥).

وواضح من هذا كله ما يدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التى كانت تصدر أحيانا بالتشديد عليهم لم تكن تنفّذ، وأنهم كانوا يعملون فى مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج. وكان كثير منهم-وخاصة من النصارى-يعيشون فى نعيم غدق لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة.

الحضارة والترف والملاهى:

رأينا تفنّن الخلفاء والوزراء فى بناء القصور، حتى ليشبه بعضها مدنا صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات، مع التأنق فى أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش

والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر.

وقد افتتح العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التى كلفت الدولة ملايين الدنانير، ويكفى لتصور ما كان فى عصره من بذخ وترف شديد أن نروى ما قصّه الرواة عن حفله الذى أقامه بمناسبة إعذار (ختان) ابنه المعتز، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس فى خزائن الفرش بساطا لإيوان قصر البركوار الذى أقام فيه الإعذار، وأن يكون فى طوله وعرضه، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين، ووجد طلبته: بساطا مذهبا مبطنا، يقال إن التجار قوّموه بعشرة آلاف دينار.

وبسط فى الإيوان ووضع للمتوكل فى صدره سرير، مدّ بين يديه أربعة آلاف مرفع (كرسى) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والندّ والكافور. ومدّت الموائد وتغدّى المتوكل والناس. وجلس على السرير، وأحضر الأمراء والقواد والندماء فأجلسوا على مراتبهم، وجئ بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين، صبّت فيها حتى ارتفعت. ووزّع الغلمان الشراب، ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملت يداه من ذلك المال. وكان الناس يجمعونه فى أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم. وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدراهم حتى يعود كما كان.

كانت العامة تجد تسليتها المحبّبة عند قصّاص كانوا منتشرين فى طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لنرى المعتمد يأمر فى سنة ٢٧٩ بالنداء فى بغداد ألا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاصّ ولا صاحب نجوم ولا زاجر (٣). وكان اللعب بخيال الظل معروفا حينئذ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك (٤). وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفننون فى طرق الهزل، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازلين ببغداد من الأعراب والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعا، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير (٥). ومن أشهر هؤلاء الحكّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلى، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخبارا ونوادر ومضاحك، وكان فى نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك، وكان لا يدع حكايته لأعرابى أو مكى أو نجدى أو تركى أو نبطى أو زنجى أو سندى إلا حكاها، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى، وسمع به المعتضد فأحضره، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه .

الرقيق والجوارى والغناء:

كثر الرقيق فى العصر العباسى كثرة مفرطة بسبب كثرة من كانوا يؤسرون فى الحروب وبسبب انتشار تجارته ومعروف أن الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب، غير أن تجارة الرقيق كانت منتشرة فى إيران وخراسان وما وراءهما وفى الدولة البيزنطية، وعظمت هذه التجارة فى الإسلام على مر السنين، حتى كان فى بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق (٢)، وكان يقوم عليه موظف يسمّى قيّم الرقيق.

وكان الرقيق حينئذ يجلب من بلاد الزّنج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبى أوربا وكان الزنوج يعملون فى فلاحة الأرض غالبا، أما غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة فى المنازل والقصور. وقد دعا الإسلام دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق فكان كثير منهم يحرّرون، وقد يصل بعضهم إلى أرفع المناصب

فى الدولة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه ثم وزيره. وكان الرشيد يستكثر منهم حتى قال إنه سار يوما وبين يديه أربعمائة منهم ، ومعروف شغف المعتصم بالرقيق التركى، وما زال يشتريهم من أيدى مواليهم ومن النخاسين حتى اجتمعوا له بالآلاف وحتى اضطرّ أن يبنى لهم-كما أسلفنا-مسرّ من رأى كى يجنّب العامة شرهم وأذاهم.

وكان رقيق النساء من الجوارى أكثر عددا من رقيق الرجال فقد ذخرت بهن الدور والقصور، إذ أحلّ الإسلام للشخص أن يتملك من الإماء والحوارى ما شاء، وبينما قيّد حريته إزاء الحرائر فحرّم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حريته إزاء الجوارى فلم يقيّده بعدد منهن، وإن كان قد حرم عليه بيع من يستولدها وردّ إليها حريتها بعد وفاته وجعل أولاده منها أحرارا منذ ولادتهم. وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر، لأنهن كن من أجناس مختلفة، فمنهن السنديات والفارسيات والحبشيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات، وأيضا ربما كان للحجاب دخل فى ذلك، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر، أما الجوارى فكن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم، وصوّر ذلك الجاحظ فقال: «قال بعض من احتجّ للعلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمّل كل شئ منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة، والحرّة إنما يستشار فى جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلا ولا كثيرا، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك. وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكأن عقها إبريق فضة وكأن ساقها جمّارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المدارى وما أشبه ذلك، وهناك أسباب أخربها يكون الحب والبغض» (٢).

وكانت هؤلاء الجوارى والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثّرن آثارا واسعة فى أبنائهن ومحيطهن، وهى آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملا بعيد الغور، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن، فالمنصور أمه حبشية والهادى والرشيد أمهما الخيزران رومية والمأمون أمه مراجل فارسية وكذلك أم المعتصم ماردة. وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس. وقد أخذ هؤلاء الجوارى يكثرن فى القصر منذ المهدى وكان بينهن من يعلقن الصّلبان ويقال إنه اشترى جاريته مكنونة بمائة ألف درهم. وقد استكثر الرشيد وزوجه زبيدة من الجوارى والإماء حتى قيل إنه كان عند كل منهما زهاء ألفى جارية فى أحسن زى من الثياب والجوهر ، وكانت سحر وضياء وخنث من بينهن يشغفن قلبه، وفيهن يقول، وقيل: بل نظم ذلك العباس بن الأحنف على لسانه:

ملك الثلاث الآنسات عنانى ...وحللن من قلبى بكل مكان

مالى تطاوعنى البريّة كلّها ...وأطيعهنّ وهنّ فى عصيانى

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ...-وبه عززن-أعزّ من سلطانى

العصر الاول:

الشعوبية والزندقة:

نادى الإسلام فى قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب، حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية، فلا عدنانى ولا قحطانى ولا عربى ولا أعجمى، إنما هى أمة واحدة يتساوى أفرادها فى جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح، يقول جلّ شأنه: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبة حجة الوداع: «أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى» .

وهذا بلا ريب مثل أعلى أراده الإسلام لأمته، غير أنا لا نصل إلى عصر على بن أبى طالب وما نشب لعهده من حرب صفّين حتى نرى العصبيات القبلية تعود جذعة بين القبائل، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة، بل لقد اضطرمت اضطراما لم تهدأ ثائرته طوال عصر بنى أمية. وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادّة الدين فى معاملة الموالى، فهم يرهقونهم بكثرة الضرائب، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب فى الحقوق، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة، فلم يؤت عمله فى هذا الجانب أى ثمرة.

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالى سببا فى اضطغانهم على العرب، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية، فشاركوا الخوارج والشيعة فى الثورة عليها، يأخذ فريق منهم يمثلهم إسماعيل (٣) بن يسار النسائى يفاخر العرب بحضارة أمته الفارسية وملوكها الساسانيين الذين غلبوا على الأرض. وعظم حقد الموالى على الدولة، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم، والتفّت منهم جماعات كثيرة حول أبى مسلم داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا فى جيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا فى أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا، بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة، وخاصة حين استولى على أزمّة الحكم البرامكة فى عهد الرشيد وبنو سهل فى عهد المأمون.

وكان هذا التحول الخطير فى مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة فى المجتمع العباسى الجديد سببا فى بروز نزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب–وفى مقدمتها الشعب الفارسى– للعرب مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة.

وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الإسلام فلا عربى يفضل أعجميّا ولا أعجمى يفضل عربيّا، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة فى نفسها تعلى من شأن صاحبها، فالناس جميعا سواء وقد خلقوا من تراب ويعودون إلى التراب.

وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والنزول بهم دونها مرتبة أو مراتب، وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين، إذ قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقّصوا قدرهم وصغّروا شأنهم، وكانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوّضوا دولهم وهى مشاعر ما زالت تحتدم فى نفوس الفرس حتى أحيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة. وأشد من كل هؤلاء عنفا وغيظا من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة، وفيهم يقول الجاحظ: «إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدّى إلى الضلال، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك

وأهم شاعر فى العصر أوقد نيران هذه الخصومة وظل يمدها بحطب جزل من أشعاره بشار بن برد وكان فى عصر بنى أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس، حتى إذا حدث الانقلاب العباسى انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسبا ولاءه إلى الله ذى الجلال، يقول :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم ...مولى العريب فخذ بفضلك فافخر

وقد مضى يشنّ حربا عنيفة على العرب، وكان أبوه طيّانا يضرب اللّبن، فاعتزى إلى أشراف العجم وملوكهم داخلا- كما يقول الجاحظ-بذلك فى باب فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه. ولم يكتف بهذا النسب الذى ادعاه فقد مضى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الرّوم على نحو ما نجد فى قصيدته :

هل من رسول مخبر ...عنى جميع العرب

وهى تصور ضراوة حقده العنيف على العرب، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم. وفى الحق أن شعوبيته كانت صارخة، إذ كان زنديقا وعدوّا للعرب ودينهم الحنيف عداوة ترسب فى ضميره وفؤاده.

وممن يسلكون فى شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريمى، ولم يكن جادّا فى تعصبه على العرب وخصومتهم، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب، ولذلك ينبغى أن ينحّى عن جماعة الشعوبيين، وأدخل منه فيهم أبو نواس وشعوبيته إنما ترجع إلى شغفه بالخمر وعكوفه على المجون وإعجابه بالحضارات الأجنبية، فهى شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات، وكان يبتغيها ما وجد إليها سبيلا، ويجعلها غاية الغايات من حياته، وقد مضى يصور ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدّية الخشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة بالخمر والغلو فى الشراب والإغراق فى اللذات، وله فى ذلك أشعار كثيرة. وكانت تسقط أسراب من هذه النزعة إلى شعراء النبط والهند، من مثل قول أبى الأصلع الهندى يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند :

لقد يعذلنى صحبى ...وما ذلك بالأمثل

وفى مدحتى الهند ...وسهم الهند فى المقتل

وفيه السّاج والعاج ...وفيه الفيل والدّغفل

محاضرة ٢

العصر الثاني

المجون والشعوبية والزندقة

رأينا فى كتابنا العصر العباسى الأول كيف كانت موجة المجون حادة، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة، إذ ظل الناس يمعنون فى شرب الخمر واحتساء كئوسها، مدمنين عليها لا يرعوون ولا يزدجرون.

ومعروف أن القرآن الكريم حرّمها، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها، لمجئ ذلك بنص القران، وما كان محرّما بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير. أما النبيذ فمسكره محرم أيضا بالقياس، غير أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين والبرّ وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ. فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء، وتجاوزوا ما حلّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

أباح العراقى النبيذ وشربه ...وقال حرامان: المدامة والسّكر

وقال الحجازىّ: الشرابان واحد ...فحلّ لنا من بين قوليهما الخمر

سآخذ من قوليهما طرفيهما ...وأشربها لا فارق الوازر الوزر

وابن الرومى يريد بالحجازى الشافعى وبالعراقى أبا حنيفة، وقد استحدث لنفسه مذهبا ثالثا لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضا الخمر، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء، وأن نظن أنهم إنما تورطوا فى الأنبذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة، بل شربوا أنواعها المسكرة. وكان المتوكل يعقد فى قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب، وكان يحب الشرب ومن حوله الورود والرياحين وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب ، وكان يشرب فى قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه، كما كان شرب فى البساتين. وفرغ المعتمد–كما مر بنا فى غير هذا الموضع–للهو والشراب، ويقول المسعودى: «كان مشغوفا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى ، وديوان ابن المعتز ملئ بالخمر ودنانها وكئوسها وغبوقها وصبوحها. وكان القاهر مدمنا شرب الخمر كما كان مولعا بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعبها وحده ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائه بالشرب، ثم

وجدوا له رخصة من يمينه فكفّر عنها وعاد إلى الشراب، وآخر الخلفاء المستكفى وكان قد ترك الشراب، فلما ولى الخلافة دعا به توّا وعاد إلى شربه.

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة فى عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب فى الدولة وعلية القوم، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق النبيذ المحلل، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دريد، كان يعكف عليها عكوفا شديدا، ويقول أبو حفص بن شاهين: «كنا ندخل عليه فنستحى مما نرى من العيدان المعلّقة والشراب وقد جاوز التسعين». وأوغل الشعراء فيها إيغالا. ومن يتصفح كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى يحس أن بعض الناس أدمنوها إدمانا شديدا. وكانوا يعقدون لها المجالس فى المساء والليل والصباح، وآثروا ألا يقل عدد الندماء عن ثلاثة، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغلمان والجوارى وكانوا يزينون مجالس الشراب بالورود والرياحين، كما كانوا يزينون رءوسهم أحيانا بأكاليل الزهر.

وكانت البساتين حول سامرّاء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها، وقد يختلون بأنفسهم إلى زاوية فى بستان ويتخذون منها لأنفسهم حانة، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تتملّى بجمال الجوارى وآذانهم تتمتع بالسماع، وكثيرا ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحترى :

اشرب على زهر الرياض يشوبه ...زهر الخدود وزهرة الصّهباء

من قهوة تنسى الهموم وتبعث الـ ...شّوق الذى قد ضلّ فى الأحشاء

وكن من أجناس مختلفة، وقلما كن يشعرن بشئ من الكرامة أو يستشعرن شيئا من التحفظ والاحتشام، بل لقد كن يتفنن فى الحيل التى يجذبن بها الرجال، وكن يستكثرن من الخلان بطرق غير مستقيمة:

يا ليالىّ بالمطيرة والكر ...خ ودير السّوسىّ بالله عودى

كنت عندى أنموذجات من الجنّ ...ة لكنها بغير خلود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهى أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى، وكانت تشبه كرنفالات

ضخمة يلهو الناس فيها لهوا مباحا وغير مباح ويتفرجون على القصّاص والحكّائين وأصحاب المساخر الهزليين، أما أعياد الإسلام فهى أعياد رأس السنة الهجرية وعيد الفطر وعيد الأضحى. وفى ديوانى البحترى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة ، وأما أعياد الفرس فمن أهمها عيد النيروز فى أول الربيع، وهو أول السنة الفارسية، وينوه الشعراء بذكره كثيرا كقول البحترى يهنئ المعتمد به وبلحظات سروره :

لا تخل من عيش يكرّ سروره ...أبدا ونيروز عليك معاد

وكانوا يكثرون من التهادى فيه، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء. وكانو يخرجون فيه إلى المتنزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة. ومن أعياد الفرس عيد المهرجان فى أول الشتاء، وفيه يقول البحترى :

وكأن الأيام أوثر بالحسـ ...ـن عليها ذو المهرجان الكبير

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به، وقد حشد فيها كثيرا من فنون اللهو فيه (٥)، وكان للفرس عيد يسمى عيد السّذق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال، ويظلون يجمعون لها الأحطاب أياما، ومن أشهر ما كان فى هذ العيد احتفال مرداويج الديلمى أمير الجبل فى غربى إيران به، ويقال كان فى السماط الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر وممن كان يذهب هذا المذهب فى الحماقة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلى الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه، إذ يقول فى شعوبية حاقدة ذميمة (١):

أنا ابن الأكارم من نسل جمّ ...وحائز إرث ملوك العجم

وطالب أوتارهم جهرة ...فمن نام عن حقّهم لم أنم

فقل لبنى هاشم أجمعين ...هلموا إلى الخلع قبل النّدم

وعودوا إلى أرضكم بالحجاز ...لأكل الضّباب ورعى الغنم

فإنى سأعلو سرير الملوك ...بحدّ الحسام وحرف القلم

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة فى هذا العصر التالى، بل لقد اشتد أوارها، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك فى النبوات عامة، وكان من أشدهم نفر بدءوا حياتهم فى صفوفهم المعتزلة، وما زالوا يبطنون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم، وفى طليعتهم أبو عيسى الوراق المتوفى سنة

٢٤٧ للهجرة (٢) وكان فى أول أمره معتزليّا، وأحسّ المعتزلة فيه إلحاده فطردوه عنهم، فتحول شيعيّا رافضيّا، وينعته الخياط بأنه كان مانويّا يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم (٣)، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له فى ذلك بعض الرسائل (٤). وقد أثر تأثيرا واسعا فى تلميذه أبى الحسين أحمد بن إسحق الرّاوندى (٥) المولود فيما بين سنتى ٢٠٥ و ٢١٥وكان أهم من ورث عن ابن الراوندى إلحاده وزندقته وطعنه على الدين الحنيف، بل على جميع الديانات الطبيب أبو بكر محمد (١) بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣٢٠، وكان كيميائيّا ماهرا إلا أنه اتبع هواه وضل ضلالا بعيدا إذ مضى على هدى ابن الراوندى وأشباهه ينكر النبوات وألف فى ذلك كتابه «مخاريق الأنبياء» وسقط بدوره من يد الزمن، إلا أن أبا حاتم الرازى أورد فى كتابه «أعلام النبوة» اقتباسات كثيرة منه ردّ عليها ونقضها نقضا، وقد حلّلها الدكتور بدوى تحليلا (٢) جيدا، وأظهر أنه يتابع فى حججه وأدلته ابن الراوندى، فالعقل يكفى وحده لمعرفة الخير والشر، ولا حكمة ولا داعى لإرسال الأنبياء، وأيضا لا معنى لأن يخصّ الله نفرا (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم، والناس جميعا متساوون فى الفطن والمواهب. وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم، زاعما أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلا بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفا على الناس ورحمة بهم.

– الزهد:

ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسى كان مجتمعا منحلاّ أسلم نفسه للإلحاد والشهوات، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا فى طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس، وكانت موجة المجون أكثر حدة، ولكنها لم تكن عامة فى المجتمع، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين. أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجونا، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادى الإسلام وصاحبه، بل كانت مسلمة حسنة الإسلام تهتدى بأضوائه وتجرى على سننه، وأما من حيث المجون فإنها لم تكن مترفة ولاثرية، بل كانت تعيش على الكفاف، بل كان كثير منها يعيش فى البؤس والضنك والضيق وقلوبه تتقطع حسرات على ما تحظى به الطبقة المترفة من أسباب النعيم. وكانوا ساخطين سخطا شديدا على كل ما يرونه حولهم من جموح الأهواء والإمعان فى المجون، وهو سخط اتسع فى أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حين

حوصرت بغداد واستطال شر المجّان والعهّار، وظلت من ذلك بقية فى سنتى ٢٠١ و ٢٠٢ فإذا جماعات كبيرة تتطوّع للنكير عليهم والأخذ على أيديهم.

وكان الوعظ فى هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبرة، وهو التحام قديم منذ تميم الدارى وكعب الأحبار فى عصر الخلفاء الراشدين ومنذ قصّاص الفتوح من أمثال أبى سفيان بن حرب. وقد ازدهر هذا الوعظ القصصى فى عصر بنى أمية عند الحسن البصرى وأضرابه، وتكامل ازدهاره فى هذا العصر. وينبغى أن نميز بين هذا الضرب من القصص الدينى وقصص آخر كان الناس يجتمعون حول أصحابه فى طرقات بغداد وغيرها من أمصار العراق ليسلوهم بالنوادر والحكايات القصيرة، ومن أجل ذلك قرنوا بأصحاب المساخر من مثل القرّادين . وقد كثر قصاص الوعظ الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدنيوى وسلوك السبيل الواضحة إلى نعيم الآخرة كثرة مفرطة وكان بجانب هؤلاء القصّاص الواعظون كثير من النساك، ومن الصعب استقصاؤهم إذ كانوا منتشرين فى كل الأمصار. وكان يحيون حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملذاتها وانصراف عن كل نعيم فيها انتظارا لما عند الله من النعيم السرمدى الذى لا يزول. وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منثورات رائعة من أقوال مشاهيرهم أمثال سفيان الثورى المتوفى سنة ١٦١ وداود الطائى المتوفى سنة ١٦٥ وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ والفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ومن مشهورى هؤلاء النساك عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ وهو الذى أنشأ أول رباط أو أول صومعة للناسكين فى عبّادان بالقرب من الكوفة، وفيهم وفى رباطهم يقول أبو العتاهية :

سقى الله عبّادان غيثا مجلّلا ...فإن لها فضلا جديدا وأوّلا

وثبّت من فيها مقيما مرابطا ...فما إن أرى عنها له متحوّلا

إذا جئتها لم تلق إلا مكبّرا ...تخلّى عن الدنيا وإلا مهلّلا

فأكرم بمن فيها على الله نازلا ...وأكرم بعبّادان دارا ومنزلا

وقد أخذت تقام فى هذا العصر رباطات أخرى فى أنحاء العالم الإسلامى، وكانت الدولة التى تقيمها أحيانا، ففى أخبار الفضل بن يحيى البرمكى أنه شخص إلى خراسان فى سنة ثمان وسبعين ومائة، فبنى المساجد والرباطات .

العصر الثاني :

الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوبية والمجون فى العصر العباسى الثانى أنه كان عصرا ملحدا غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع فى طبقات خاصة، أما المجون فكان يشيع فى الطبقة المترفة، وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد. ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع، فقد كان المجتمع مجتمعا إسلاميّا، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره، ولم تكن تعزف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد فى الأخلاق، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطا شديدا على المجان وعلى الشعوبيين والملحدين من أعداء الإسلام والعروبة.

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت فى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية، وشركتها فى ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعبّاد والنسّاك وكانوا أكثر كثرة من المجّان وأهل الفساد. وكان فى كل مسجد حلقة، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكّرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فإما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم. واختلط الوعظ بقصص دينى كثير على نحو ما صوّرنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول، وكثر حينئذ النساك والزهاد فى متاع الحياة الدنيا، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة، واقرأ فى تراجم الفقهاء والمحدّثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثرتهم وهم يعدّون فى العالم الإسلامى بالمئات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا، بل لكأنما تجرّدوا للجهاد فى سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم، منتظرين، ما عند الله من النعيم الخالد الذى لا يزول. ويكفى أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم (١) بن إسحق الحربى، وكان من كبار المحدثين، وكان لا يأخذ على محاضراته فى الحديث أجرا من أحد، إذ عزف عن كل متاع فى الحياة، وعاش معيشة زاهدة مبالغة فى الزهد إلى أقصى حد، حتى إنه ليرفض فى إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه، ويروى أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف

درهم مع بعض أتباعه، فردّها، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها فى جيرانك، فقال له: عافاك الله، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته، قل لأمير المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحوّلنا عن جوارك.

ومنذ أواسط القرن الماضى يعنى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت فى نشأته وتطوره، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر،

وإذا كان ذو النون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعة نحو المعرفة الإلهية، فإن أبا يزيد طيفور بن عيسى البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه–على ما يظهر–فكرة الفناء فى الذات العلية، وقد أثبت له نيكلسون كثيرا من الأقوال من مثل قوله: «للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويّته بهويّة غيره، وغيبّت آثاره بآثار غيره»، وقوله: «خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فىّ: يا من أنت أنا! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله». وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله: «سبحانى ما أعظم شانى» وقوله: «خرجت من بايزيديّتى كما تخرج الحية من جلدها، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد». ويمكن أن يردّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء. ومما نسبوه إليه أيضا قصة معراجه إلى السماء وقد قصّها العطار بالتفصيل إذ روى عنه قوله: «صعدت إلى السماء وضربت قبتى بإزاء العرش». ولا شك فى أنها قصة منحولة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال: «وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه، منها:

«سبحانى» و: «ما فى الجبّة إلا الله» و: «ما النار؟ ! لأستندنّ إليها غدا وأقول

جعلنى لأهلها فداء، وما الجنة؟ ! إنها لعبة صبيان.

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت فى الوضوح منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، حتى لتنشأ طبقه تحاضر فيه مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفا، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩، وهو أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والعشق والقرب والأنس ، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧

فى هذا العصر فنجد المتصوفة دائما يعلنون تمسكهم بها، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التسترى الصوفى المتوفى سنة ٢٨٣: «أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق» وفى رسالة القشيرى أنه كان ينكر الكرامات إنكارا شديدا.

وأهم صوفى ظهر بأخرة من القرن الثالث الجنيد المتوفى سنة ٢٩٧ وينعت بالقواريرى الخزّاز، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هو يبيع الخزّ، وأصله من نهاوند بالقرب من همذان، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد، وهو ابن أخت السرىّ السقطى وعنه أخذ الطريقة، وأخذها السّرىّ بدوره عن معروف الكرخى. وكان ورده فى اليوم ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة، وفى طبقات الصوفية للسّلمى أنه كان يقول: «ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات»، ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع، وكان يصلى كل ليلة أربعمائة ركعة.

مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسى الثانى نظام الطرق والمريدين فى التصوف، فللإمام الصوفى طريقة، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها فى موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامى. وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية، وصبغها بصبغة جماهيرية شعبية، وإن كان قد رشّح لأن يكون الارتباط فى الطريقة بالإمام الصوفى نفسه لا بمبادئه وأفكاره، ومن أهم الصوفيين المتأخرين فى العصر الحكيم الترمذى محمد بن على بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسسن فلسفية لعلم الكلام، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق فى دراسة اتجاهات الشيعة، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتبا كثيرة. ويقال إنه هو الذى أدخل بقوة نظرية الولاية فى البيئات الصوفية وكل ما جرّت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته فى خلقه، وقد ألف فيها كتابا سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتما كما أن للأنبياء خاتما وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام: «يغبطهم النبيون والشهداء» إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم! ! وذكر فى الكتاب المذكور أن عيسى يعود فى آخر الزمان، وبذلك يكون خاتم الأولياء، وثار عليه أهل بلدته «ترمذ» ففر إلى نيسابور وبها توفّى. وقال

السبكى: دافع عنه السلمى معتذرا عنه ببعد فهم الفاهمين. وعلى كل حال يعدّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات.

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى تلفانا ظاهرة جديدة فى بيئات المتصوفة، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين، وهم فى أثناء ذلك يتواجدون وجدا لا يشبهه وجد، أما منذ أبى الحسين النوربالمتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين ينظمون الشعر معبرين به عن التياع قلوبهم فى الحب آملين فى الشهود مستعطعين متضرعين، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استئثارا مطلقا، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلى دلف بن جحدر المتوفّى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيد.

المحاضرة ٦

الحركة العلمية:

أذكى الإسلام جذوة المعرفة فى نفوس العرب إذ دفعهم دفعا قويّا إلى العلم والتعلم، فلم يمض نحو قرن حتى أخذت العلوم اللغوية والدينية توضع أصولها، وحتى أخذ العرب يلمّون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات متباينة، وقد مضوا فى هذا العصر يتقصونها وينقلونها بكل موادها إلى لغتهم، ونهض التعليم حينئذ نهضة واسعة، وعادة كان الناشئ يبدأ بالتعلم فى الكتاتيب حيث يتعلم مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم وشيئا من الحساب وبعض الأشعار والأمثال ، وكان بعض معلمى هذه الكتاتيب يعلمون الناشئة أيضا السنن والفرائض والنحو والعروض وكانوا يؤثرون فى تعليم البنات تحفيظهن القرآن الكريم وخاصة سورة النور ، ويورد الجاحظ وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب من مثل أبى البيداء الرياحى اللغوى ومحمد بن السكن المحدث وأبى عبد الرحمن السلمى المقرئ وأبى صالح الإخبارى. وخصّ الجاحظ هؤلاء المعلمين برسالة ملأها بنوادرهم ، مما كان سببا فى أن تدور شخصية معلم الكتّاب بين الشخصيات المضحكة فى الأدب العربى، وممن كثر التندير عليه فى هذا العصر منهم علقمة ابن أبى علقمة النحوى الذى كان يتقعّر فى كلامه مكثرا فيه من الغريب الشاذ وكان يعنى فى مكتبه بتعليم الناشئة العربية والنحو والعروض ومات فى خلافة المنصور وقد ألف بعض الأدباء رسالة تجمع نوادره

وكان للناشئة ألواح من الخشب العادى أو من الآبنوس يكتبون فيها دروسهم وكلما فرغوا من درس محوه منها وأثبتوا مكانه درسا آخر. وكان معلموهم يؤدبونهم بالجلد والضرب والحبس، وفى أخبار إبراهيم الموصلى أنه «أسلم إلى الكتّاب فكان لا يتعلّم شيئا، وكان لا يزال يضرب ويحبس ولا ينجع ذلك فيه، فهرب إلى الموصل وهناك تعلم الغناء» ويذكر الجاحظ أنه كان لأعشى بنى سليم ابن رآه مسنّا كان يدع الكتّاب ويلعب بالكلاب، فكتب أبوه إلى معلمه :

ترك الصلاة لأكلب يلهو بها ...طلب الهراش مع الغواة الرّجس

فاذا خلوت فعضّه بملامة ...أو عظه موعظة الأديب الأكيس

وإذا هممت بضربه فبدرّة ...وإذا ضربت بها ثلاثا فاحبس

وكان هؤلاء المعلمون يتقاضون من الناشئة أجورا زهيدة، لا تتجاوز أحيانا بعض رغفان من الخبز كانت تختلف أحجامها وأنواعها باختلاف أحوال آبائهم غنى وفقرا، حتى لقد ضربت برغفان المعلم الأمثال على شدة الاختلاف والتفاوت.

وكان بجانب معلمى أولاد العامة فى الكتاتيب معلمون لأبناء الخاصة، كان منهم اللغوى والإخبارى والفقيه والمحدث والمقرئ، وكانوا أحسن حالا من معلمى

أبناء العامة، على أن الجاحظ يقول فى جمهورهم: «يكون الرجل نحويّا عروضيّا وقسّاما فرضيّا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما» .

وامتازت فى هذا العصر البصرة بسوق باديتها المعروف باسم المربد، وكان منهلا لشباب البصرة يغدون عليه ويروحون للقاء الفصحاء من الأعراب والتحدث إليهم تمرينا لألسنتهم وتربية لأذواقهم ومحاولة لاكتساب السليقة العربية المصفّاة من شوائب العجمة. وكانوا يكتبون ما يسمعونه منهم من طرائف الشعر، على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى نواس وأنه كان يغدو على المربد بألواحه للقاء الأعراب .

وكان من شباب الشعراء من يرحل إلى البادية ليأخذ اللغة والشعر من ينابيعهما الأصيلة على نحو ما هو معروف عن بشار .

وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى، فلم تكن بيوتا للعبادة فحسب، بل كانت أيضا معاهد لتعليم الشباب حيث يتحلّقون حول الأساتذة، يكتبون ما يلقونه أو يملونه، وكان الأستاذ يستند عادة إلى

أسطوانة فى المسجد، ثم يأخذ فى إلقاء محاضرته أو إملائها، وفى الحلقات الكبيرة كان يردّد مستمل كلامه حتى يسمعه ويكتبه البعيدون عنه فى الحلقة. وكان لكل فرع من المعرفة حلقته أو حلقاته الخاصة، فحلقة لفقيه وحلقة لمحدث وحلقة لقصاص أو لمفسر وحلقة للغوى وحلقة لنحوى وحلقة لمتكلم، وكانت حلقة الفقهاء من أكبر الحلقات إذ كان يقصده طلاب الفقه ومن يريدون أن يتولوا منصب القضاء أو الحسبة، وكذلك كانت حلقة المتكلمين لما يجرى فيها من مناظرات ومحاورات بينهم أنفسهم وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل. وكان يتحلّق كثيرون فى حلقات اللغويين والنحاة، ويقال إنه كان يحضر حلقة ابن الأعرابى الكوفى زهاء مائة شخص ، وكثيرا ما كانت تدور فى تلك الحلقات هى الأخرى مناظرات بين أصحابها على نحو ما يروى عن الأخفش من أنه تعرض للكسائى فى حلقة وسأله عن مائة مسألة محاورا له ومناقشا مناقشات مستفيضة .

وهذه الحلقات الكثيرة التى لم يكن يشترط للحضور فيها أى شرط سوى الرغبة فى السماع والتى كانت مباحة لأى وارد كى يأخذ منها ما يريد من زاد المعرفة .

وتلك هى الظاهرة الأولى، أما الظاهرة الثانية فهى نشوء طائفة من العلماء والأدباء الذين نوّعوا معارفهم تنويعا واسعا، إذ لم يكتفوا بالاختلاف إلى حلقة واحدة، بل مضوا يختلفون إلى جميع الحلقات آخذين بطرف من كل لون من ألوان المعرفة حتى أصبحوا يشبهون الصحفيين المعاصرين الذين يستطيعون أن يتحدثوا حديثا شائقا فى كل صور المعرفة والثقافة.

العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال:

نشأت العلوم الدينية فى ظلال الحديث النبوى، وقد أخذ رواته يضيفون إليه ما أثر عن الصحابة لا فى تعاليم الدين الحنيف فحسب، بل أيضا ما أثر عنهم وعن الرسول الكريم فى تفسير الذكر الحكيم. وبذلك حمل الحديث كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير. وقد أخذ يدوّن تدوينا عامّا منذ أوائل القرن الثانى للهجرة، على نحو ما هو معروف عن ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ وما انكاد نتقدم فى العصر العباسى حتى يتكاثر التصنيف فيه، وكانوا يوزعونه فى مصنفاته غالبا على أبواب الفقه، وأول جيل يلقانا لمصنفيه فى هذا العصر جيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة المتوّفى سنة ١٥٠ ومعمر بن راشد باليمن المتوفى سنة ١٥٣ وسعيد بن أبى عروبة بالبصرة المتوفى سنة ١٥٦ ومواطنه الربيع ابن صبيح المتوفى سنة ١٦٠ ومواطنهما حماد بن سلمة المتوفى

سنة ١٦٥ وسفيان الثورى بالكوفة المتوفّى سنة ١٦١ وعبد الرحمن الأوزاعى بالشام المتوفى سنة ١٥٧ والليث بن سعد بالفسطاط المتوفى سنة ١٧٥. ويتبع هذا الجيل جيل ثان على رأسه مالك بن أنس بالمدينة المتوفّى سنة ١٧٩ وسفيان بن عيينة بمكة المتوفى سنة ١٩٨ وعبد الرازق الصنعانى باليمن المتوفى سنة ٢١١ وعبد الله بن المبارك بخراسان المتوفى سنة ١٨١ وهشيم بن بشير بواسط المتوفى سنة ١٨٣ ويحيى بن زكريا بن أبى زائدة بالمدائن المتوفى سنة ١٨٣ ومحمد بن فضيل بن غزوان بالبصرة المتوفى سنة ١٩٨ ووكيع بن الجراح بالكوفة المتوفى سنة ١٩٦ وعبد الله بن وهب بالفسطاط المتوفّى سنة ١٩٧.

وأهم كتاب وصلنا عن هذين الجيلين كتاب «الموطّأ» لمالك بن أنس إمام أهل المدينة، وهو مرتب على أبواب الفقه، وفى كل باب أحاديث الرسول–صلى الله عليه وسلم–المتعلقة به وأقوال الصحابة وفتاوى التابعين وفتاوى مالك نفسه. وقد ظل يمليه على طلاّبه نحو أربعين عاما، وهو يزيد وينقص فيه وفى أحاديثه، ولذلك اختلفت رواياته، وأشهرها رواية يحيى بن يحيى الليثى الأندلسى المتوفّى سنة ٢٣٤ وقد شرحها الزرقانى وشرحه مطبوع.

ونشأت بجانب التفسير–لهذا العصر–علوم قرآنية كثيرة، أحصاها ابن النديم إحصاء دقيقا، ذاكرا أهم من صنفوا فيها ومصنفاتهم ، وهى علم نقطه وشكله وأهم من ألفوا فيه الخليل بن أحمد ومعروف أنه أول من ابتكر الشكل فى العربية، وقد أخذه من صور حروف العلل الممدودة فالضمة واو صغيرة الصورة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فوقه . ومن تلك العلوم علم الوقف والابتداء فى آياته، وممن ألفوا فيه الفراء، وعلم غريبه وممن ألفوا فيه محمد بن سلام الجمحى وأبو عبيد القاسم بن سلام، وعلم لغاته وممن صنفوا فيه الأصمعى وأبو زيد الأنصارى، وعلم معانيه وممن صنفوا فيه انفراء وأبو عبيدة، وعلم قراءاته وممن صنفوا فيه أبو عمرو بن العلاء وأبو عبيد القاسم بن سلام، وعلم ناسخه ومنسوخه وممن صنفوا فيه أحمد بن حنبل، وعلم أحكامه وممن صنفوا فيه الشافعى ويحيى بن أكثم صفى المأمون وقاضيه.

وازدهرت دراسات الفقه فى هذا العصر ازدهارا عظيما، فإذا الفقهاء يصوغونه صياغة علمية دقيقة على نحو ما صاغ اللغويون النحو وغيره من العلوم اللغوية.

ويمثل الأولين أهل الحجاز بينما يمثل الثانين أهل العراق ولذلك سمّوا أهل الرأى، وسرعان ما تحول الاتجاهان فى هذا العصر إلى مذهبين واضحين فى الفقه والتشريع: مذهب أبى حنيفة فى الكوفة والعراق ومذهب مالك فى المدينة والحجاز، وينفذ الشافعى من خلال المذهبين إلى مذهب مستقل به، وبأخرة من العصر ينفذ ابن حنبل إلى مذهب رابع كانت تتبعه فيه عامّة بغداد.

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت يرجع إلى أصل فارسى، وقد ولد سنة ٨٠ للهجرة وتوفى ببغداد سنة ١٥٠ وكان بزازا وهو مع ذلك يتثقف بالحديث والقرآن والفقه والتفسير حتى صار أبرع أهل زمانه فى الفقه والرأى، بل لقد نفذ إلى مذهب مستقل به، وهو مذهب كان يعتمد على الكتاب والسنة، كما كان يعتمد على القياس العقلى اعتمادا واسعا متخذا منه حلولا للأحكام الكثيرة التى تطلبتها المشاكل التى نشأت فى حياة الناس من الجهتين الدينية والدنيوية، ويقال إنه أفتى فى ثلاث وثمانين ألف مسألة منها ثمان وثلاثون ألفا فى العبادات والبقية فى المعاملات. وإلى دقته فى استخدام القياس يشير مساور الوراق إذ يقول :

إذا ما النّاس يوما قايسونا ...بآبدة من الفتيا ظريفه

أتيناهم بمقياس طريف ...مصيب من قياس أبى حنيفه

العصر الثاني

الحياة العقلية

١ – الحركة العلمية

دعا الإسلام أمته فى قوة إلى العلم والتعلم، فبمجرد أن اكتسح العرب العراق وإيران والشام ومصر مضوا ينهلون من كل الثقافات والمعارف.

ونشط التعليم حينئذ نشاطا واسعا فمن تعليم للناشئة بالكتاتيب إلى تعليم للشباب بالمساجد، وكان الناشئة يبدءون بتعلم الخط والكتابة والقراءة ويحفظون بعض السور القرآنية، ويشدون بعض الأشعار والأمثال؟ ؟ ؟ ، ويدرسون شيئا من الحساب والسنن والفرائض والنحو والعروض، وعنى معلمو البنات بتحفيظهن القرآن وخاصة سورة النور، على نحو ما صورنا ذلك كله فى كتاب العصر العباسى الأول نقلا عن الجاحظ، وذكر هو وابن قتيبة أسماء طائفة مشهورة من معلمى الكتاتيب، ونراه يخصّهم برسالة لا تزال منها بقايا بين رسائله المطبوعة على هامش كتاب الكامل للمبرد، وفيها يصوّر

نوادرهم وحماقاتهم المضحكة، ومن حينئذ أصبحت شخصية معلم الكتّاب تدور بين الشخصيات الهزلية فى أدبنا العربى، ويقول محمد بن حبيب العالم اللغوى المتوفى سنة ٢٤٥: إذا قلت للرجل ما صناعتك؟ فقال:

معلم صبيان فاصفع، يشير إلى حماقته، وكان ينشد:

من علّم الصّبيان صبّوا عقله ...حتى بنى الخلفاء والخلفاء

وصبّوا عقله: جعلوه مثل عقلهم: عقل الصبيان حمقا وبلاهة، وكأنما تصيب عقله عدوى من عقولهم لطول ملابسته لهم، وابن حبيب يعمم ذلك حتى فيمن يعلمون أبناء الخلفاء وآباءهم حين كانوا فى المهد صغارا. ويقول ابن قتيبة إنهم كانوا يعلمون الصبيان على حسب الهدايا التى كانت تأتيهم من آبائهم (٢)، أو بعبارة أدق على حسب الأجور التى كانوا يأخذونها منهم.

وطبيعى ألا تكون حياة معلم الكتّاب على هذا النحو رافهة، بل كان كثيرا ما يحفّ بها الضيق والبؤس على نحو ما يحدثنا الرواة عن أبى زيد البلخى المتوفى عام ٣٢٢ وكان فى بدء حياته معلم كتّاب، وقد شكا شكوى مرة حينذاك من حياته (٣) البائسة. وكثير من اللغويين والنحاة قبل أن ينالوا شهرتهم العلمية بدءوا معلمى صبية مثل يعقوب بن السكيت المتوفى سنة ٢٤٣، فقد كانت له فى مطالع حياته حلقة فى درب القنطرة ببغداد يؤدّب فيها مع أبيه صبيان العامة (٤). ويخيّل إلى الإنسان كأنما أولاد العامة جميعا كانوا يختلفون إلى الكتاتيب لما استقر فى نفوس آبائهم من ضرورة التعلم وأنه مثل الطعام والشراب لا يمكن الاستغناء عنه، وأن من لم يتعلم فى صغره فاته العلم فى كبره، ومثّلوا العلم فى الكبر بالنقش على الماء، وفى الصغر بالنقش على الحجر يثبت ولا يزول أبدا. وكان الأولاد يكتبون فى ألواح من الآبنوس أو الخشب، كل على حسب قدرة أبيه المادية، وكان المعلمون يأخذونهم بالتأديب، فيضربونهم أحيانا أو يحبسونهم، حتى يؤدوا واجباتهم على خير وجه.

وكان معلمو أبناء الخاصة أحسن حالا ومعاشا من معلمى أبناء العامة، ومع ذلك نرى الجاحظ يأسى لحالهم إذ يقول: «يكون الرجل نحويّا عروضيّا وقسّاما فرضيّا وحسن الكتاب جيد الحساب حافظا للقرآن راوية للشعر وهو يرضى أن يعلّم أولادنا بستين درهما، ولو أن رجلا كان حسن البيان حسن التخريج للمعانى ليس عنده غير ذلك لم يرض بألف درهم» (١) وهذا إنما ينصب على معلمى أبناء الطبقة الوسطى، أما من كانوا يعلمون أبناء الخلفاء والوزراء والأمراء والقواد وكبار رجال الدّولة

والأعيان وكبار التجار فكانوا يحظون برواتب كبيرة، فمثلا يعقوب ابن السكيت الذى بدأ، كما أسلفنا، معلم كتاتيب حين عهد إليه بعض الحكام فى تعليم ابنه جعل له راتبا شهريّا خمسمائة درهم وسرعان ما جعلها ألفا، واتخذه المتوكل لتعليم ولده وأسنى له الراتب وأجزل فى العطاء (٢)، ولما أسند محمد بن عبد الله ابن طاهر نائب المتوكل على بغداد وجماعة من الخلفاء بعده تعليم ابنه إلى ثعلب الإمام الكوفى النحوى المشهور ظل ثلاث عشرة سنة يتناول الغداء معه على مائدته، وفرض له أن يأخذ يوميّا خبزا فاخرا ولحما كثيرا حين انصرافه إلى منزله وجعل له ألف درهم شهريّا. وقالوا إنه حين مات خلّف واحدا وعشرين ألف درهم وألفى دينار وحوانيت أو دكاكين بباب الشام فى بغداد قيمتها ثلاثة آلاف دينار (٣)، ويقال إن الخاقانى وزير المقتدر أو لم وليمة ضخمة بمناسبة دخول ابن له الكتّاب وأعطى المعلم ألف دينار.

ولم تكن هناك مراحل للتعليم مثلنا اليوم، بل كان الكتّاب يحلّ محل تعليمنا الابتدائى والإعدادى، ومن يريد أن يكمل تعلمه بعده يختلف إلى حلقات المساجد، وكانت أشبه بمعاهد عليا، فلم تكن فقط دورا للعبادة، بل كانت أيضا دورا، بل قل جامعات، للعلم والعلماء، إذ كان لكل عالم فى كل فرع من فروع العلم حلقة كبرى، يتخلّق فيها ظلابه من حوله. وكان عادة يستند إلى أسطوانة فى المسجد، ثم يملى محاضراته والطلاب يكتبون، وإذا كانوا كثيرين بحيث لا يسمعه البعيد عنه ردّد مستمل كلامه حتى يستطيع البعيدون عنه سماع ما يقوله وكتابته، وكان العالم لا يغير مكان حلقته الذى اختاره منذ نهض بالتدريس، ويروى أن نفطويه المتوفى سنة ٣٢٣ ظل يملى دروسه فى اللغة والنحو بجامع المنصور ببغداد خمسين سنة وهو جالس إلى أسطوانة بعينها لا يزايل مكانه منها (١). وكانت أكثر الحلقات طلابا حلقات المتكلمين والفقهاء، أما المتكلمون فلكثرة ما كان يجرى بينهم من مناظرات كان الطلاب يختلفون إليها للفرجة والتعلم، وأما الفقهاء فلأن الإلمام بالفقه كان الوسيلة إلى تولى مناصب الحسبة والشرطة والقضاء والولاية أحيانا.

وكان الطلاب يمسكون فى أيديهم بالأقلام والأوراق للكتابة وأمامهم محابرهم، وكانوا يعدّون بالمئات فى بعض الحلقات، ويروى أن الطبرى حين سأله الطلاب الحنابلة عن إمامهم ابن حنبل وخلافه مع بعض الفقهاء وأجابهم بأن خلافه لا يعدّ أو لا يؤبه له رموه بمحابرهم وكانت ألوفا (٢).

وكانت المساجد حينئذ أشبه بجامعات حرة، فالطلاب يختلفون إلى من يشاءون الاستماع إليه بدون أى شرط، منهم من يأخذ الفقه أو الكلام أو الحديث النبوى أو التفسير أو اللغة أو النحو أو الشعر، وكثير منهم كان يأخذ ما عند شيخ، ثم يتحول عنه إلى شيخ آخر أو حلقة أخرى، ويبدو أن بعض علماء النحو واللغة كان يتقاضى من طلابه أجورا على حسب قدرتهم، ففى أخبار الزجّاج أنه رغب فى تعلم النحو فلزم حلقة المبرد بجامع بغداد لتعلمه، فسأله أى شئ صناعتك؟ فأجابه:

ولم تكن هذه الجوانب وحدها ثمار اشتراك الطبقة الشعبية العامة فى العلم والثقافة، فقد كانت هناك ثمرة مهمة غاية الأهمية، هى محاولة أن يصبح العلم شعبيّا بحيث لا يعلو على أفهام العامة، وبحيث يصل إليهم من أسهل الطرق وأيسرها، ويتضح ذلك عند الجاحظ فى كتابه «البيان والتبيين» و «الحيوان» وعند ابن قتيبة فى كتابه «عيون الأخبار». ومرّ بنا أن الجاحظ أراد بكتابه «البيان والتبيين» أن يردّ على الشعوبية ردا مفحما ببيان ما تحمل الثقافة العربية فى الخطابة والشعر والأمثال من قيم بلاغية رائعة، ونضيف هنا أنه أراد أن يذلل هذه الثقافة بعرضها فى أسلوب عصرى يقرّبها من أفهام العامة بحيث تسيغها بدون أى عسر أو مشقة. وبون بعيد بين عرض هذه الثقافة عند اللغويين من أمثال الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وعرضها عند الجاحظ فى البيان والتبيين، فهى عند الأولين جافة جفافا شديدا ولا يستطيع غير المتخصصين فهمها والفقه بمسائلها العويصة، أما فى البيان والتبيين فعذبة سائغة لا للطبقة الوسطى من المثقفين فقط، بل أيضا للطبقة الشعبية الدنيا.

كم رمتنى صروف هذى الليالى ...بفراق الأحباب والخلاّن

المحاضرة الثالثة

ازدهار الشعر

١ – ملكات الشعراء اللغوية

كانت البادية فى هذا العصر لا تزال تمد الحاضرة بكثير من الشعراء ذوى السليقة العربية السليمة من مثل أبى البيداء وابن الدّمينة وابن ميّادة وأبى حيّة النّميرىّ وأبى ضمضم الكلابى وابن عمه أبى زياد والعمانى وشبيل بن عزرة الضّبعىّ وأبى العميثل وعمارة بن عقيل حفيد جرير. وقد تحول كثير من

هؤلاء الشعراء إلى معلمين يعلمون الناشئة اللغة ورواية الشعر القديم . وكان يقابلهم فى المدن شعراء لم ينشأوا فى البادية، ولكن السليقة العربية تحولت إليهم وتمثلت فى دخائلهم، حتى أصبحوا لا يقلون عن شعراء البادية فصاحة وبيانا.

ولعلماء اللغة الذين تحدثنا عنهم فى الفصل السابق الفضل فى تحول هذه السليقة إلى شعراء الحضر، فقد جمعوا لهم اللغة والشعر الجاهلى والإسلامى، ووضعوا لهم مقاييسهما وضعا دقيقا، وظلوا طوال العصر يبعثون فيهم الإيمان بأن الشعر القديم هو القدوة المثلى. وكان من هؤلاء اللغويين شعراء بارعون بادروا إلى الاحتذاء على هذه القدوة، نذكر من بينهم حمادا الرواية والخليل بن أحمد وخلفا الأحمر والأصمعى.

ولم يغرض هؤلاء اللغويون على شعراء الحاضرة نماذج الشعر القديم السهلة فحسب، بل لقد كان همهم الأول أن يعرضوا عليهم نماذجه العويصة المليئة بالحوشىّ والألفاظ الغريبة، ومضوا فجعلوها مدار إملاءاتهم ومحاضراتهم حتى ليقول الجاحظ: «لم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إغراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج (٢)».

ومعروف أن أهم مجموعتين للشعر القديم ألّفتا فى العصر هما المفضليات للمفضّل

لضبى الكوفى والأصمعيات للأصمعى البصرى، وهما تزخران بالغريب. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن اللغويين لم يكادوا يتركون قصيدة ولا مقطوعة جيدة لشاعر جاهلى أو إسلامى إلا سجلوها ودوّنوها، وفسروها وشرحوها. وبذلك انقادت اللغة وسلست لمعاصريهم من الشعراء وغير الشعراء.

وكان من أهم ما حفزهم إلى ذلك القرآن الكريم والحديث النبوى، حتى لا تستغلق دلالتهما على أفهام الناس وأفهام العلماء أنفسهم، مما جعل الجاحظ يقول:

«للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدلّ عندهم على معانيهم وإرادتهم.

فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل. فإذا نظر فى الكلام وفى ضروب من العلم وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك الناس (١)». وانضم إلى ذلك باعث سياسى، فإن خلفاء بنى العباس أظهروا محافظة شديدة على لغة القرآن الكريم وبعثوا العلماء على مدارستها والتعمق فيها ورواية كل ما يتصل بها من أنساب وأيام وأخبار وأشعار. وقد جعلوا مقياس وظائفهم الكبيرة التفوق فيها، فكانوا لا يستوزرون ولا يستكتبون إلا من حذقها وبرع فى أدائها. وأخذوا أبناءهم بتعلمها، بل

بإتقانها، فأحضروا لهم كبار اللغويين ليحفظوهم كثيرا من نماذجها الشعرية وكى يقفوهم على صياغاتها وأساليبها، وتأليف المفضل الضبى للمهدى كتاب المفضليات، وهو لا يزال ناشئا فى عهد أبيه، ذائع مشهور. وبذلك سرى فى القصر العباسى ذوق محافظ كان له أثره فى الشعراء، إذ كانوا يمثلون بين أيدى الخلفاء مادحين لهم. وكانوا يقيسون جودتهم بهذا الذوق، فكان لا بد لهم أن يتلاءموا معه حتى يظفروا بما يبتغون من جوائز كبيرة. وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من مثل الكسائى والأصمعى، فكان لا بد للشعراء أن يروقوهم حتى ينالوا استحسانهم، ويرى ذلك الخلفاء منهم فيجزلوا لهم فى العطاء.

وبذلك أصبح اللغويون سدنة الشعر فى هذا العصر وحرّاسه، فمن نوّهوا به طار اسمه، ومن لوّحوا فى وجهه خمل وغدا نسيا منسيّا. ويلقانا كثير من الشعراء يعرضون عليهم أشعارهم قبل إنشادها فى المحافل العظام، فإن استحسنوها مضوا فأنشدوها، وإن لم يستحسنوها ذهبوا يعاودون الكرّة بصنع قصائد جديدة آملين أن تظفر باستحسانهم، فمن ذلك ما يروى عن مروان بن أبى حفصة

من أنه لما نظم قصيدته: (طرقتك زائرة فحىّ خيالها)

وهى إحدى روائعه فى المهدى ذهب إلى حلقة يونس النحوى فقال له: قد قلت شعرا أعرضه عليك، فإن كان جيدا أظهرته، وإن كان رديئا سترته. وأنشده القصيدة، فأعجب بها يونس وقال له إنها بريئة من العيوب (١). حينئذ مضى فأنشدها المهدى، فزحف من صدر مصلاّه حتى صار على البساط إعجابا بما سمع، ثم قال لمروان:

كم هى؟ قال مروان: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم، فكانت أول مائة ألف درهم أعطيت لشاعر فى أيام بنى العباس (٢). ويسوق المرزبانى فى كتابه الموشح فصلا طويلا (٣)، يصور فيه كيف كان الشعراء يعرضون أشعارهم على اللغويين ليجيزوها لهم، فهم قضاة الشعر وصيارفته، وفى ذلك يقول الخليل بن أحمد لابن مناذر: «إنما أنتم-معشر الشعراء-تبع لى، وأنا سكّان السفينة إن قرّظتكم ورضيت قولكم نفقتم وإلا كسدتم (٤)».

وعلى هذا النحو سيطر اللغويون على سوق الشعر العباسى، وقد مضوا يتمسكون بالمثل الشعرى القديم تمسكا شديدا، وهو تمسك جعل كثيرين منهم يسقطون الشعراء العباسيين إسقاطا حتى لنرى أبا عمرو بن العلاء يختم الشعر بذى الرّمّة والرّجز برؤبة قائلا فى المحدثين: «إنهم كلّ (٥) على

غيرهم، إن قالوا حسنا فقد سبقوا إليه، وإن قالوا قبيحا فمن عندهم (٦)». وكان الأصمعى يختم الشعر بابن ميّادة وابن هرمة وأضرابهما من شعراء نجد والحجاز الذين أدركوا الدولة العباسية (٧). وأنشده إسحق الموصلى بيتين من شعره دون أن يسمى قائلهما، فلما أظهر إعجابه بهما قال له إسحق: إنهما من نظمه، فبادره قائلا: أفسدت الشعر، إن التوليد فيهما لبيّن (٨). ويروى الرواة أن ابن مناذر كان يقول لأبى عبيدة: «اتّق الله واحكم بين شعرى وشعر عدىّ بن زيد، ولا تقل ذاك جاهلى وهذا عباسى، وذاك قديم وهذا محدث، فتحكم بين العصرين ولكن احكم بين الشعرين، ودع العصبية ولا شك فى أن إهدار اللغويين لشعر العباسيين بسبب حداثته خطأ فى التقويم، إذ الجودة الفنية لا تقاس بالقدم والحداثة، والشعر الجيد جيد فى كل زمان ومكان.

ولكن من الحق أنهم–بهذا الموقف–جعلوا نماذج الشعر القديم، بالقياس إلى العباسيين، تصبح كالأمهات الغاذية، فكلهم نهلوا من أثدائها وتغذوا بها غذاء سرى فى قلوبهم وتمكن من نفوسهم. ويأخذنا العجب حين نقرأ لهؤلاء الشعراء، فنراهم عربا تامين وكأنهم فصلوا توّا من الجزيرة. ومع هذه العروبة اللغوية القوية فيهم كان اللغويون لا يستشهدون بأشعارهم مخافة أن يحدث اضطراب فى النموذج الشعرى القديم، وحتى يحتفظوا له بكل ما يمكن من صحة وسلامة ودقة. وقد مضوا يعدّون عليهم سقطاتهم، وهى ليست سقطات بالمعنى الصحيح، إذ هى فى كثرتها إما ضرورات رآها الشعراء العباسيون فى الشعر القديم، فقاسوا عليها، وإما لغات شاذة رأوها أيضا فى هذا الشعر وظنوا أن من حقهم مجاراتها، وإما اشتقاقات وأبنية استحدثوها على ضوء المقاييس اللغوية التى تلقنوها. واقرأ فى كل ما نثره المرزبانى فى «الموشح» من هذه السقطات فستراه قلما يعد وهذه الوجوه الثلاثة.

ونضرب مثلا لذلك: ما كان يأخذه الأخفش على بشار من اشتقاقه فى بعض أشعاره كلمتى «الوجلى، والغزلى» من الوجل والغزل ظنّا منه أن هذا من حقه وإن لم يسمع عن العرب، وكذلك جمعه لفظة «نون» بمعنى البحر على «نينان» ظنّا منه أن الكلمة تدخل فى قياس هذا الجمع (٢). وأبو نواس هو أكثر العباسيين مآخذ (٣)، وهى تردّ عنده إما إلى ضرورات شعرية وإما إلى بعض لهجات عربية، وفى ذلك يقول ابن قتيبة: «وقد كان أبو نواس يلحّن فى أشياء من شعره لا أراه فيها إلا على حجّة من الشعر المتقدم وعلى علّة بيّنة من علل النحو، منها قوله:

فليت ما أنت واط ...من الثّرى لى رمسا

طوابع عقلية دقيقة:

رأينا فى الفصل السابق كيف رقيت الحياة العقلية فى هذا العصر رقيّا بعيدا.

وهو رقى هيأت له الكتب الكثيرة التى ترجمت عن الهنود والفرس واليونان، كما هيأت له المحاورات والمناظرات بين أصحاب الملل والنحل والأهواء، وهى مناظرات ومحاورات دفعت الشعراء كما دفعت غيرهم إلى التفكير المتصل، الذى ما بنى صاحبه يحاور ويناظر، متناولا كل شئ، حتى يصقل عقله، وحتى يبلغ أقصى ما يريد من العلم والمعرفة. وما لم يعرفه ولم يعلمه سأل عنه العلماء، ليصوروه له، وليزيلوا الشبهة فيه عن نفسه، وفى ذلك يقول بشار (١):

شفاء العمى طول السؤال وإنما ...دوام العمى طول السكوت على الجهل

فكن سائلا عما عناك فإنما ...دعيت أخا عقل لتبحث بالعقل

ولم يكن الشاعر العباسى يلتمس المعرفة عند العلماء ولقائهم وسعيه لسؤالهم وإلحاحه فى السؤال فحسب، بل كان يلتمسها أيضا فى الكتب المترجمة من كل صنف، ومن خير ما يصور ذلك أبيات لمحمد بن يسير، يشرح فيها أنه فى بيت كتبه، وكنوز الآداب من حوله، يغذى بها نفسه وعقله غذاء ممتعا، يقول (١):

هم مؤنسون وألاّف غنيت بهم ...فليس لى فى أنيس غيرهم أرب

فأيما أدب منهم مددت يدى ...إليه فهو قريب من يدى كثب (٢)

حتى كأنى قد شاهدت عصرهم ...وقد مضت دونهم من دهرهم حقب

وابن يسير إنما يعبر عن نزوع الشعراء عامة فى عصره للتزود بجميع ألوان المعرفة وما كانوا يجدون فى ذلك من لذة عقلية لا تعد لها لذة. وقد مضوا يتمثلون كثيرا من هذه الألوان ويحيلونها غذاء شعريّا بديعا، سواء منها الهندى والفارسى واليونانى، وما لم يحيلوه تأثروا به من قريب أو من بعيد. ولنقف قليلا عند الثقافة الهندية، فقد لا حظ ابن قتيبة أن أبا نواس كان يتأثر بعض أفكارها فى أشعاره، من ذلك قوله فى الخمر:

تخيّرت والنجوم وقف ...لم يتمكّن بها المدار

يقول ابن قتيبة: «يريد أن الخمر تخيّرت حين خلق الله الفلك، وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقفة فى برج ثم سيّرها من هناك، وأنها لا تزال جارية حتى

تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه، وإذا عادت إليه قامت القيامة وبطل العالم، والهند تقول إنها فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت إلا يسيرا منها، فهلك الخلق بالطوفان، وبقى منهم بقدر ما بقى منها خارج الحوت (٣)». وينشد ابن قتيبة قول أبى نواس فى بعض المغنين هاجيا:

قل لزهير إذا حدا رشدا ...أقلل أو أكثر فأنت مهذار

سخنت من شدة البرودة حـ ...تّى صرت عندى كأنك النار

لا يعجب السامعون من صفتى ...كذلك الثّلج بارد حار

ويعلق بقوله: «هذا الشعر يدلّ على نظر أبى نواس فى علم الطبائع، لأن الهند تزعم أن الشئ إذا أفرط فى البرد عاد حارّا مؤذيا، ووجدت فى بعض كتبهم:

لا ينبغى للعاقل أن يغترّ باحتمال السلطان وإمساكه، فإنه إما شرس الطبع بمنزلة الحية إن وطئت فلم تلسع لم يغتر بها فيعاد لوطئها، أو سمح الطبع بمنزلة الصّندل الأبيض البارد إن أفرط فى حكّه عاد حارّا مؤذيا (١)». وأكبر الظن أن ابن قتيبة يريد ببعض كتبهم كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه الفرس عن الهندية، ثم نقله ابن المقفع إلى العربية، على نحو ما مرّ بنا فى غير هذا الموضع، وخلفه أبان بن عبد الحميد فنظمه شعرا بكل ما فيه من قصص وحكم. وكان أثره عميقا فيما صاغه العباسيون من حكم وأمثال، ونرى ابن عبد ربه فى العقد الفريد يتمثل بحكمة منه هى: «إن الحازم يكره القتال ما وجد بدّا منه، لأن النفقة فيه من النفس والنفقة فى غيره من المال» ولاحظ أن أبا تمام نقل هذا المعنى إلى شعره فقال (٢):

كم بين قوم إنما نفقاتهم ...مال وقوم ينفقون نفوسا

وكان تأثير الثقافة الفارسية فى الشعر والشعراء أشد وأقوى من تأثير الثقافة الهندية، إذ كان كثير من الشعراء يتقنون اللغة الفهلوية، لا من يرجعون إلى أصول فارسية فحسب مثل أبى نواس، بل أيضا بعض من يرجعون إلى أصول عربية مثل العتّابى، وكان يعكف على قراءة كتبها، ورآه شخص يوما ينسخ بعض صحفها، فسأله متعجبا: لم تكتب كتب العجم؟ فأجابه منكرا سؤاله: وهل المعانى والبلاغة إلا فى كتب العجم؟ اللغة لنا والمعانى لهم (٣). وقد مضى الشعراء منذ ظهور كتابى الأدب الكبير والأدب الصغير لابن المقفع يتأثرون بما نقله فيهما من تجارب الفرس

ولعمرى لو ذقتما ألم الفر ...قة أبكاكما الذى أبكانى

أسعدانى وأيقنا أنّ نحسا ...سوف يلقاكما فتفترقان

المحاضرة الرابعة

التجديد فى الموضوعات القديمة

التجديد في المديح:

وأول موضوع نقف عنده المديح، ومعروف أن الشاعر الجاهلى والإسلامى كان يرسم فى ممدوحه. المثالية الخلقية الرفيعة التى تقدرها الجماعة، وإذا كان مؤثرا فى حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو واليا عرض لأعماله، وللأحداث التى شارك فيها. أما إذا كان بطلا يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك حربية. وقد اضطرمت هذه الغايات للمدحة فى العصر العباسى، إذ نرى الشعراء يعيدون ويبدئون فى تصوير المثل الخلقية صورا حية ناطقة، ويعدو الحصر ما استنبطوه من معان طريفة فى السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس، وقد جسموها فى الممدوحين تجسيما قويّا، حتى لتصبح كأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كى يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء. وبذلك ظلت المدحة تبث فى الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة. والذى لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفسية، وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها فى النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة. وقد مضى الشعراء فى مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغى أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة التى لا تصلح حياة الأمة بدونها، وبذلك كانوا صوتًا قويّا لها، صوتا ما بنى يهتف فى آذان الحكام بما ينبغى أن يكونوا عليه فى سلوكهم وسياستهم من مثل قول مروان بن أبى حفصة فى مطلع قصيدة للمهدى (١):

أحيا أمير المؤمنين محمد ...سنن النبىّ: حرامها وحلالها

وفيه يقول الحسين بن مطير (٢):

يعفّ ويستحيى إذا كان خاليا ...كما عفّ واستحيا بحيث رقيب

ويقول أبو العتاهية فى هرون الرشيد (٣):

وراع يراعى الله فى حفظ أمّة ...يدافع عنها الشرّ غير رقود

تجافى عن الدنيا وأيقن أنها ...مفارقة ليست بدار خلود

ولم يكتف الشعراء بهذا التصوير فقد عنوا بتسجيل كل ما يستطيعون من تفاصيل عن المعارك الحربية، وبذلك لم تعد قصائدهم مديحا فحسب بل أصبحت أيضا تاريخا، وهو تاريخ كتب شعرا، تاريخ أبطالنا وأمجادهم الحربية. وكان هؤلاء الأبطال ومن ورائهم الخلفاء يرصدون الجوائز الضخمة للشعراء كى يرسموا هذه البطولات، ورسموها حقّا رسما باهرا سنرى مقتطفات منه فى تضاعيف تراجمهم، ويكفى أن نسوق قطعة من تصوير على بن جبلة لبطولة أبى دلف العجلى قائد المأمون المشهور، إذ يقول من قصيدة طويلة يصف فيها بعض وقائعه .

صاغك الله أبا دلف ...صيغة فى الخلق فى خيره

كلّ من فى الأرض من عرب ...بين باديه إلى حضره

مستعير منك مكرمة ...يكتسيها يوم مفتخره

وكانت المدحة قديما تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتا ما يركبه من بعير أو فرس وما يراه فيها من حيوان وحشى، وقد يعرض لوصف مشهد الصيد، وكثيرا ما يضمنها بجانب ذلك حكما توسع مدارك السامع وتبصره بأطراف من سنن الحياة.

الاطلال:

وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية، غير أنهم اتخذوها رمزا، أما الأطلال فلحبهم الداثر، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان فى الحياة، وقد استغلوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لا يزال يترقرق فى أشعارهم من مثل قول مسلم بن الوليد :

هلا بكيت ظعائنا وحمولا ...ترك الفؤاد فراقهم مخبولا

فإذا زجرت القلب زاد وجيبه ...وإذا حبست الدمع زاد همولا (٦)

وحاول بعض الشعراء أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضرة المأنوسة، وحينئذ كان لا يسترسل فى وصف حنينه، على شاكلة أشجع إذ يستهل إحدى قصائده بقوله (٢):

قصر عليه تحيّة وسلام ...نشرت عليه جمالها الأيام

وعلى نحو ما استبقوا الأطلال وما يتصل بها من حنين يعبث بنفوسهم استبقوا رحلة الصحراء، وتفننوا فى وصف وعوثة طرقها ورياحها الحارة التى تكاد تتوقد توقدا، على شاكلة قول مسلم (٣):

التجديد في الهجاء :

وإذا تركنا المديح إلى الهجاء وجدنا معالم التطور فيه أعمق وأوسع منها فى المديح الخالص، إذ كان يتصل بحياة الشعب والعامة اتصالا لعله أدق من اتصال المديح، وهى حياة لم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن فى العصر الأموى، ومن أجل ذلك ضعف فن النقائض لقيامه عليها إلا أسرابا قليلة كانت تظهر من حين إلى حين. ولكن إذا كان هذا الفن ضعف، فإن الهجاء لم يضعف بسبب التنافس الشديد بين الشعراء، وقد عمت فيه روح جديدة، إذ أخذوا يريشونه سهاما مصمية.

ويخيل إلى الإنسان أن أصحابه لم يتركوا مثلبة خلقية أو نفسية فى شخص إلاّ صوروها، وكأنما يريدون أن يطهروا المجتمع منها، ولم يتورعوا أحيانا عن هجاء الخلفاء والوزراء، كلما رأوهم ينحرفون عن الجادة على نحو ما هو مشهور عن دعبل. وبذلك يصبح الهجاء الصحيفة التربوية المقابلة للمديح، فالمديح يرسم المثالية الخلقية لهذه التربية، والهجاء يرسم المساوى الفردية والاجتماعية التى ينبغى أن يتخلص منها المجتمع الرشيد. وقد تبارى الشعراء فى رسم معانيه، تارة يخزون وخز الإبر، وتارة يطعنون طعنات قاتلة، من ذلك قول بشار فى هجاء ابن قزعة بشحّه (١) فلا تبخلا بخل ابن قزعة إنه ...مخافة أن يرجى نداه حزين

إذا جئته للعرف أغلق بابه ...فلم تلقه إلا وأنت كمين

وقول أبى تمام مصورا غيرة شخص لا فى موضع الغيرة من نسائه، وإنما فى الغيرة على طعامه ورغفانه حتى لكأن كسر رغيفه كسر عظم من عظامه، بل لكأنه فتك به أشد الفتك، يقول (٢):

صدّق أليّته إن قال مجتهدا ...لا والرغيف، فذاك البر من قسمه (٣)

قد كان يعجبنى لو أنّ غيرته ...على جراذقه كانت على حرمه (٤)

إن رمت قتلته فافتك بخبزته ...فإنّ موقعها من لحمه ودمه

التجديد في الفخر:

وظلت للفخر حيويته القديمة، وإن كان قد ضعف فيه الفخر القبلى، على أن أسرابا بقيت منه عند نفر من الشعراء، وفى مقدمتهم أبو نواس إذ كان يتعصب لمواليه من بنى سعد العشيرة القحطانيين وينظم فى ذلك أشعارا كثيرة، ومثله كان دعبل، وقد رد على مذهبّة الكميت التى تشيّع فيها للنزاريين على القحطانيين ردّا عنيفا، مما جعل أبا سعد المخزومى يهاجيه طويلا (٢). وحاول شاعر يسمى ابن قنبر أن يدفع مسلم بن الوليد للاشتباك به فى معركة حامية من معارك الهجاء القبلى، ولكن مسلما أخرسه (٣). وكان بشار يتعصب فى عصر بنى أميّة لمواليه القيسيين تعصبا حادّا، حتى إذا نجحت الثورة العباسية أظهر ما كان يستره من كره الإسلام والعرب، وأخذ يعنف بهم عنفا شديدا، مصورا البغض الذى كان يحرق كبده. والجديد حقّا فى الفخر لهذا العصر أن كثيرا من الشعراء صدروا فى فخرهم عن شعور طاغ بالمروءة والكرامة والشيم الرفيعة من مثل قول عوف بن محلّم الخزاعى (٤):

وإنى لذو حلم على أن سورتى ...إذا هزّنى قوم حميت بها عرضى (٥)

وإنى لأجزى بالكرامة أهلها ...وبالحقد حقدا فى الشدائد والخفض

وقول بكر بن النطّاح (٦):

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ...ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وإنا لنلهو بالسيوف كما لهت ...فتاة بعقد أو سخاب قرنفل (٧)

التجديد في الرثاء:

ونشط الشعراء فى الرثاء نشاطا واسعا، إذ لم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد مشهور إلا وأبّنوه تأبينا رائعا، وقد صوّروا فى القواد بطولتهم ومحنة الأمة والجيوش فى وفاتهم، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا. وحقّا رثاؤهم لهم يفيض بالحزن واللوعة، ولكنه مع ذلك يكتظ بالحماسة والقوة وتمجيد بطولتهم تمجيدا يضرم الحمية فى نفوس الشباب للدفاع عن العرين حتى الموت، دفاعا يقوم على البأس والبسالة والاستطالة. وكان يحدث أن يخرّ بطل صريعا فى بعض الميادين، حينئذ ينظم فيه

الشعراء مراثى حماسية تؤجج لهيب الحفيظة فى القلوب وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال الرماح ذبّا عن حرمات الوطن، ومن خير ما يمثل ذلك مراثى أبى تمام فى محمد بن حميد الطوسى الطائى، فإنه أوقع ببابك وجنوده لعهد المأمون وقائع ملأته هو وعسكره فزعا ورعبا، ولكن حدث فى آخر وقعة أن اندفع ابن حميد فى مضيق حرج، والتف به جنود بابك، فظل قائما يدافعهم ويقاومهم لا يتزحزح عن موضعه، حتى إذا أحيط به لم يستسلم ولم يلق السلاح، بل قاتل حتى قتل عزيزا كريما. وحزنت الأمة حزنا عميقا لموته، وانبرى أبو تمام يرثيه مراثى رائعة تصور جلده فى القتال وصبره فى النضال حتى الموت الزؤام، على نحو ما يلقانا فى مرثيته العينية، التى استهلها استهلالا بديعا بقوله (١):

أصمّ بك النّاعى وإن كان أسمعا ...وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا (٢)

وفيها يقول:

فتى كلما ارتاد الشجاع من الرّدى ...مفرّا غداة المأزق ارتاد مصرعا (٣)

فإن ترم عن عمر تدانى به المدى ...فخانك حتى لم تجد فيه منزعا (٤)

فما كنت إلا السيف لاقى ضريبة ...فقطّعها ثم انثنى فتقطّعا

رثاء الاصدقاء:

وشاع فى العصر بكاء الرفقاء والأصدقاء، بكاء يفجر الحزن فى النفس، لما يصور من شقاء الأصدقاء بموت رفاقهم وكيف يصطلون بنار الفراق المحرقة، من مثل قول بشار فى ندب أحد أصدقائه من الزنادقة (١):

اشرب على تلف الأحبّة إننا ...جزر المنية ظاعنين وخفّضا (٢)

ويلى عليه وويلتى من بينه ...كان المحبّ وكنت حبّا فانقضى

قد ذقت ألفته وذقت فراقه ...فوجدت ذا عسلا وذا جمر الغضا (٣)

رثاء الابناء:

وقاسمنى دهرى بنىّ بشطره ...فلما تقضّى شطره عاث فى شطرى (٥)

ألا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ...سبقتك إذ كنا إلى غاية نجرى

وكنت به أكنى فأصبحت كلما ...كنيت به فاضت دموعى على نحرى

بكاء الزوجة:

ألا من رأى الطفل المفارق أمّه ...بعيد الكرى عيناه تبتدران

التجديد في الغزل :

ولعل الشاعر العباسى لم يعن بموضوع قديم كما عنى بالغزل وتصوير عاطفة الحب الإنسانية التى كانت تخفق بأغانيها صباح مساء العيدان والطنابير والدفوف والمعازف من كل شكل مختلطة بأصوات المغنيات والمغنين على جميع صور الإيقاعات من الشدة واللين. وكانت المغنيات خاصة أو بعبارة أخرى القيان يعبثن بقلبه هن ومن حولهن من الجوارى والإماء، وكان يتصل بهن اتصالا غير مقطوع على نحو ما أسلفنا فى الفصل الثانى، وكل منهن تود لو استحوذت على شاعر، وبادلته حبّا بحب وهياما بهيام. وكاد أن يكون لكل شاعر طائفة من الجوارى يحففن به، وكان منهن كثيرات يحسنّ نظم الشعر، فكن يكتبن أبيات الغزل المثيرة على عصائبهن وثيابهن، وقد يطارحن بعض الشعراء أبيات العشق والصبابة، على نحو ما صوّرنا من ذلك فى غير هذا الموضع.

الغزل العفيف :

دعا بفراق من تهوى أبان ...ففاض الدّمع واحترق الجنان

كأن شرارة وقعت بقلبى ...لها فى مقلتى ودمى استنان (٢)

إذا أنشدت أو نسمت عليها ...رياح الصّيف هاج لها دخان

الغزل الماجن :

اخلع عذارك فى الهوى ...واشرب معتّقة الدّنان

وصل القبيح مجاهرا ...فالعيش فى وصل القيان

لا يلهينّك غير ما ...تهوى فإن العمر فان

وتبلغ حدة هذه الموجة غايتها فى عهد الأمين، إذ حوّل قصر الخلافة إلى ما يشبه مقصفا للخمور والمجون، واتخذ أبا نواس نديمه، وكان يعكف على الخمر والمجون عكوفا يقترن بعجيج وضجيج وهجوم على مقدمة الأطلال القديمة طالبا إلى الشعراء أن يضعوا مكانها وصف الخمر المعتقة، صائحا بذلك صياحا كثيرا من مثل قوله (٢):

قل لمن يبكى على رسم درس ...واقفا ما ضرّ لو كان جلس (٣)

تصف الرّبع ومن كان به ...مثل سلمى ولبينى وخنس

التجديد في الزهد :

قد انتشر فى العصر شعر الزهد، وكان أكثر اتصالا بحياة الجماهير من شعر الخمر والمجون، فإنها لم تكن تعرف ترفا ولا ما يشبه الترف، وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة يشيع فى بعض جوانبها النسك والعبادة وإما أن يقلع إلى حين يطول أو يقصر على نحو ما يلقانا عند أبى نواس مما جعل ديوانه يشتمل على مثل قوله (٣):

ألا ربّ وجه فى التراب عتيق ...ويا ربّ حسن فى التراب رقيق (٤)

فقل لقريب الدار إنك راحل ...إلى منزل نائى المحل سحيق

وما الناس إلا هالك وابن هالك ...وذو نسب فى الهالكين عريق

إذا امتحن الدّنيا لبيب تكشّفت ...له عن عدوّ فى ثياب صديق

وإذا كان أبو نواس شغل فى زهدياته بمصير الإنسان فإن ابن حازم، وغيره كثيرون، شغلوا بالدعوة إلى القناعة بالكفاف والرضا بالحظ المقسوم والغنى عما فى أيدى الناس والحكام من مثل قوله (١):

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس ...واقنع بيأس فإن العزّ فى الياس

واستغن عن كل ذى قربى وذى رحم ...إن الغنىّ من استغنى عن الناس

وأخذت تظهر حينئذ تباشير التصوف، غير أنه لا يزدهر فى هذا العصر، إنما يزدهر فى تاليه، وسنعرض لتلك التباشير فى الفصل السادس، وأيضا سنعود إلى الحديث عن الزهد حديثا أكثر تفصيلا.

موضوعات جديدة:

التنفير من اليأس محمد بن يسير:

لا تيأسنّ وإن طالت مطالبة ...إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

إن الأمور إذا انسدّت مسالكها ...فالصبر يفتح منها كلّ ما ارتتجا (٣)

بقول حماد عجرد (٣):

الاخلاق المحمودة:

كم من أخ لك لست تنكره ...ما دمت من دنياك فى يسر

متصنّع لك فى مودّته ...يلقاك بالترحيب والبشر

قصر خرب:

ألا يا قصر قصر النّوشجانى ...أرى بك بعد أهلك ما شجانى

فلو أعفى البلاء ديار قوم ...لفضل منهم ولعظم شانى

لما كانت ترى بك بيّنات ...تلوح عليك آثار الزمان

النرجس:

ثلاث عيون من النّرجس ...على قائم أخضر أملس

يذكّرننى طيب ريّا الحبيب ...فيمنعننى لذّة المجلس (٣)

وقد أكثروا من **وصف الأمطار والسحب**، كما أكثروا من وصف الرياض وخاصة فى الربيع حين تتبرج الطبيعة بمناظرها الفاتنة. وعبروا عن أحاسيسهم ومشاعرهم أحيانا خلال هذا الوصف، مما جعلهم يخاطبون بعض عناصرها، وكأنها أناسىّ تحمل عواطف الإنسان ويصيبها ما يصيبه من ريب الزمان، ومن خير ما يصور ذلك مخاطبة مطيع بن إياس لنخلتى حلوان على هذه الشاكلة:

أسعدانى يا نخلتى حلوان ...وابكيالى من ريب هذا الزمان (٥)

واعلما أن ريبه لم يزل يف ...رق بين الألاّف والجيران

المحاضرة ٥

التجديد فى الأوزان والقوافى

سبق أن تحدثنا فى كتاب «العصر الإسلامى» عن مدى ما أثّر به الغناء المستحدث حينذاك فى موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نظم المقطوعات القصيرة فى الغزل وأخذ الشعراء يصفّون موسيقاهم حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاما خالصة: نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة. وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالبا عن النظم فى الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم فى الأوزان الخفيفة البسيطة، فإن ألموا بالأوزان الأولى جزّءوها غالبا حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا فيها من الخروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثارا نفذ منه الوليد بن يزيد إلى استكشاف وزن المجتث وصنع بعض المقطوعات فيه.

وانتقلت موجة هذا الغناء فى أواخر العصر الأموى إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسى الأول بلغت فى مدن العراق كلّ ما كان ينتظر لها من حدة وقوة، فمن جهة صفيّت لغة الشعر وبلغت كل ما يمكن من رشاقة وعذوبة ونعومة على نحو ما مرّ بنا فى أوائل هذا الفصل، ومن جهة ثانية اتسعت الملاءمات الموسيقية العروضية مع الغناء، فإذا القصيدة الطويلة تكاد تختص بالشعر الرسمى: شعر المديح والرثاء، بينما تشيع المقطّعات فى الغزل والهجاء والمجون والزهد والحكم. ومضى الشعراء ينظمون–على هدى الشعراء الأمويين–فى الأوزان الخفيفة والمجزوءة وفى وزن المجتث الذى اقترحه الوليد بن يزيد، ومن خير من يمثّل ذلك مطيع بن إياس الكوفى فإننا حين نتصفح الشعر المبثوث فى ترجمته بكتاب الأغانى نجد كثرته من مجزوءات الخفيف والبسيط والرجز والكامل والرمل أو من الهزج أو من المجتث على شاكلة قوله (١):

ويلى ممّن جفانى ...وحبّه ند برانى

وطيفه يلقانى ...وشخصه غير دانى

أغرّ كالبدر تعشى ...بحسنه العينان

ولم يلبث الشاعر العباسى أن حاول النفوذ إلى أوزان جديدة، وإذا هو يكتشف وزنين سجلهما الخليل بن أحمد حين وضع نظرية العروض، وهما وزنا **المضارع والمقتضب**، أما المضارع فأجزاؤه مفاعيلن فاعلاتن مفاعيلن، ودائما تحذف فيه التفعيلة الأخيرة، ومنه مقطوعة أبى العتاهية (١):

أبا عتب ما يضرّ ...ك أن تطلقى صفادى (٢)

وأما المقتضب فأجزاؤه مفعولات مستفعلن مستفعلن، وتحذف منه التفعيلة الأخيرة أيضا، كما يلقانا عند أبى نواس فى مقطوعته (٣):

حامل الهوى تعب ...يستخفّه الطّرب

إن بكى يحقّ له ...ليس ما به لعب

وواضح أن هذا الوزن أكمل نغما وإيقاعا من سابقه، ولعل ذلك هو الذى جعله يشيع ويتداوله الشعراء، بينما كادوا يهملون المضارع. واكتشف الشاعر لعباسى أيضا وزن المتدارك أو الخبب، ويقال إن الخليل لم يسجله فى عروضه، إنما سجله تلميذه الأخفش (٤)، ولكنه إن كان لم يقترح له اسما فإنه عرفه ونظم منه أشعارا مختلفة (٥)، من مثل:

أبكيت على طلل طربا ...فشجاك وأحزنك الطّلل

ومثل:

ليس المرء الحامى أنفا ...مثل المرء الضّيم الراضى (٦)

ونرى الفرس حين يعودون إلى لغتهم ويحدثون نهضتهم الأدبية يستخدمون هذا الضرب من الشعر فى قصصهم متخذين له اسما جديدا هو «المثنوى». ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه هو الذى رشح لظهور الرباعيات فى الأدبين العربى والفارسى، وهى تتألف من أربعة شطور، تتفق أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة، أما الشطر الثالث فقد يتخذ نفس القافية وقد لا يتخذها، من مثل قول بشار مازحا مع جاريته ربابة (٧):

ربابة ربّة البيت ...تصبّ الخلّ فى الزّيت

لها عشر دجاجات ...وديك حسن الصّوت

ويروى أن حماد عجرد صاغ من هذا النمط الرباعى أشعارا مزاوجة كان يقرأ بها الزنادقة من أمثاله فى صلاتهم (٨)، ومما يروى من رباعياته غير الدينية قوله

يهجو غيلان جد عبد الصمد بن المعذّل، وكان على أعشار البصرة وظهرت منه خيانة (١):

ظهر الأمير عليك يا غيلان ...إذ خنته إن الأمير معان

أمع الدمامة قد جمعت خيانة ...قبح الدميم الفاجر الخوّان

الرباعيات :

وتكثر الرباعيات فى ديوان أبى نواس وخاصة فى الخمريات والغزل ، ونستبعد أن تكون مقتطعة من مطالع قصائد له ضاعت، لكثرتها عنده، ومن أمثلتها الطريفة قوله:

أدر الكأس وأعجل من حبس ...واسقنا ما لاح نجم فى الغلس

قهوة كرخية مشمولة ...تنفض الوحشة عنا بالأنس

ومن يرجع إلى تراجم الشعراء فى الأغانى يجد منها أمثلة كثيرة، وممن كان يكثر منها–فيما يظهر– أبو العتاهية سواء فى الغزل أو فى الزهد، من مثل قوله فى الموت الدائر على جميع الناس (٦):

الموت بين الخلق مشترك ...لا سوقة يبقى ولا ملك

ما ضرّ أصحاب القليل وما ...أغنى عن الأملاك ما ملكوا

المسمطات:

والمسمّطات قصائد تتألف من أدوار، وكل دور يتركب من أربعة شطور أو أكثر، وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية مغايرة، وفى الوقت نفسه يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة، ومن أجل ذلك يسمى عمود المسمط فهو قطبه الذى يدور عليه وإنما سمّى مسمطا من السمط وهو قلادة تنظم فيها عدة سلوك تجتمع عند لؤلؤة أو جوهرة كبيرة، وكذلك كل دور فى المسمط يجتمع مع الأدوار الأخرى فى قافية الشطر الأخير. ومن أمثلة المسمط المربع خمرية لأبى نواس تتوالى على هذا النمط (١):

سلاف دنّ ...كشمس دجن

كدمع جفن ...كخمر عدن

طبيخ شمس ...كلون ورس

ربيب فرس ...حليف سجن

يا من لحانى ...على زمانى

اللهو شانى ...فلا تلمنى

وواضح أنه بى شطورها على تفعيلة واحدة. وكان شيوع المسمطات الخمسة أوسع من شيوع أختها المربعة، واشتهر بشار بنظمه لبعض المخمسات ، ويقول الجاحظ إنه لم يكن أحد أقوى على صنع المخمسات من بشر بن المعتمر ، وقد أنشد الدميرى لأبى نواس مخمسا ختمه بهذا الدور:

يا ليلة قضيتها حلوه ...مرتشفا من ريقها قهوه

تسكر من قد يبتغى سكره ...ظننتها من طيبها لحظه

يا ليت لا كان لها آخر

وقد اختار لآخر المخمس–كما هو واضح–صيغة يبدو من تركيبها أنها عامية، وكأنه هو الذى ألهم الوشاحين الأندلسين أن يختموا بعض موشحاتهم بأقفال عامية. ونفس الموشحات نجد صورة تقترب منها اقترابا شديدا سواء من حيث الأدوار والمراكز أو الأقفال، إذ ينسب لديك الجن صنعه لمنظومة على هذا النحو (٧):

قولى لطيفك ينثنى ...عن مضجعى عند المنام

محاضرة ٦

التجديد فى الموضوعات القديمة

وأول ما نتحدث عنه من الموضوعات المديح، ومعروف أن الشاعر الجاهلى كان يصوّر فيه المثل الخلقى الرفيع فى عصره، من الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار والحلم والحزم وإباء الضيم وحصافة العقل، حتى إذا كان العصر الإسلامى أخذ الشاعر يضيف إلى هذه المثالية الدين، وخاصة إذا كان يمدح خليفة، وكانوا يسجلون أعمال الخلفاء والولاة وما ينشرون من الأمن والعدالة التى لا تطيب حياة الناس بدونها، وسجلوا أيضا مواقع القواد مع الترك وغيرهم وبطولاتهم الحربية المختلفة. وبذلك كانت المدحة فى العصرين الجاهلى والإسلامى تشتمل بما تعرض من مثاليات على أسس قويمة خلقية ودينية لتربية الشباب، كما كانت تشتمل على أعمال الدولة وأمجاد العرب الحربية. وكل ذلك اضطرم اضطراما فى المدحة عند شعراء العصر العباسى الأول، مع محاولاتهم الجادة فى التطور بمعانى المديح عمقا وسعة وتنوعا، وظلت رغباتهم ومحاولاتهم فى هذه الإضافة تزداد خصبا فى هذا العصر، وهم فى ذلك لا ينسون مثالية المديح الموروثة، فإذا مدحوا خليفة أو واليا أو قائدا

تمثلوا فيه الفضائل العربية مرسومة، وكذلك الفضائل الإسلامية، وتمثلوا أيضا العدل الذى يعصم الحاكم من **الطغيان ويعصم الشعب من العبث والظلم والفساد.**

ويتردد ذلك دائما على ألسنة الشعراء من مثل قول البحترى فى المتوكل، وكان اسمه جعفرا (١):

خلق الله جعفرا قيّم الدّذ ...يا سدادا وقيّم الدين رشدا

أظهر العدل فاستنارت به الأر ...ض وعمّ البلاد غورا ونجدا

وكان هناك من يبالغون فى مديح الخلفاء حتى ليضفون عليهم صفات قدسية، وهى صفات خلعها شعراء الشيعة على أئمتهم منذ عصر بنى أمية، وأخذ شعراء الخلفاء من حينئذ يستعيرونها ليسبغوها بدورهم على الخلفاء الأمويين والعباسيين، من مثل قول ابن الجهم فى المتوكل (٢):

إمام هدى جلّى عن الدين بعد ما ...تعادت على أشياعه شيع الكفر

وقوله (٣):

له المنّة العظمى على كل مسلم ...وطاعته فرض من الله منزل

ويكثر فى عهده بناء القصور على نحو ما أسلفنا، وكلما شاد قصرا نوّه الشعراء به وبروعة بنائه وما يدل عليه من مظاهر الحضارة والعمران لعصره. وليس هناك حادثة جلّى من سجن وزير وتعذيبه مثل ابن الزيات، أو غضب على قاض وتصفية أمواله مثل ابن أبى دؤاد، أو على طبيب وقبض أمواله مثل بختيشوع أو على كاتب من كتاب الدواوين أو على بعض الولاة إلا ويسجل الشعراء ذلك فى أشعارهم مما يجعلها بحق وثائق تاريخية، وأروع ما سجلته هذه الوثائق أمجاد قوادنا وأبطالنا وجيوشنا فى حومات الوغى شمالا وشرقا، وهى ليست تاريخا يسرد كما تصنع كتب التاريخ، وإنما هى أناشيد انتصارات رائعة لجنودنا وقوادهم البواسل فى حروب الروم والترك والأرمن، وماتنى الجيوش العربية تخوض إليهم بحورا من الدماء منزلة بهم صواعق الموت التى لا تبقى ولا تذر: وكان من أبطال هذه المعارك لعهد المتوكل يوسف بن محمد الثغرى، وكان المتوكل قد ولاه بعد وفاة أبيه على أرمينية، وكانت قد نشبت بها ثورات فأخذ يسحقها بجنوده المغاوير سحقا، وفيه وفى **انتصاراته على بعض البطارقة الأرمنيين يقول البحترى (٣):**

هو الملك المرجوّ للدين والعلا ...فلله تقواه وللمجد سائره

له البأس يخشى والسماحة ترتجى ...فلا الغيث ثانيه ولا الليل عاشره (٤)

كسرتهم كسر الزّجاجة حدّة ...ومن يجبر الوهى الذى أنت كاسره

حسام وعزم كالحسام وجحفل ...شداد قواه محصدات مرائره

باعتذاراته للفتح بن خاقان وزير المتوكل ومن طريف ماله فيها قوله من قصيدة ميمية مدحه بها

عذيرى من الأيام رنّقن مشربى ...ولقّيننى نحسا من الطير أشأما (٢)

وأكسبننى سخط امرئ بتّ موهنا ...أرى سخطه ليلا مع الليل مظلما (٣)

وقد كان سهلا واضحا فتوعّرت ...رباه وطلقا ضاحكا فتجهّما (٤)

أعيذك أن أخشاك من غير حادث ...تبيّن أو جرم إليك تقدّما

الغزل المادى الماجن: كانت تحفّه دائما وتتخلله معانى الغزل العربى العفيف الذى شاع فى العصر الأموى، وكانت هذه المعانى تخفف من ماديته كما كانت تشعل فيه جذوة الحب الظامئ وآلامه الثقال، فلم يسقط فى كثير من جوانبه ومقطوعاته، إذ ظلت فيه الحيرة والحنان والتضرع والاستعطاف وظل الشوق الجامع الذى يملك على النفس عواطفها وحسها وشعورها وأهواءها.

وأيضا لا بد أن نلاحظ بجانب ذلك أن الغزل العذرى العفيف نفسه ظل حيّا لا من خلال معانيه التى تسربت فى الغزل المادى الصريح كما ذكرنا آنفا، وإنما من خلال بعض الشعراء الذين ارتفعوا عن أدران الحسّ وأعراضه، وعاشوا فى حبهم معيشة طاهرة نقية أعظم ما يكون الطهر والنقاء على نحو ما هو معروف عن محمد ابن داود الأصبهانى صاحب كتاب «الزهرة» فى الحب وأشعاره. وملاحظة أخيرة هى أن الضربين من الغزل المادى الإباحى والعذرى العفيف استطاعت تكلّف؟ ؟ ؟ الشعراء الخصبة حينئذ أن تستثير فيهما كثيرا من خطرات الحب ودقائقه البديعة، وابن الرومى لا يبارى فى نفوذه إلى هذه الدقائق، كقوله فى العناق وطموحه إلى امتزاج الروحين (١).

أعانقها والنفس بعد مشوقة ...إليها، وهل بعد العناق تدان

وألثم فاها كى تزول حرارتى ...فيشتد ما ألقى من الهيمان (٢)

كأن فؤادى ليس يشفى غليله ...سوى أن يرى الروحين يمتزجان

نمو الموضوعات الجديدة

على نحو ما حدث فى الموضوعات القديمة من إضافات كثيرة سواء من حيث المعانى أو من حيث التصاوير، أخذت الموضوعات الجديدة التى عرضنا لها فى كتاب العصر العباسى الأول تدخلها إضافات متنوعة، كما أخذت فروع من الموضوعات القديمة تستقل وتنمو نموّا واسعا حتى لتصبح موضوعات جديدة جدة خالصة، وأول ما نقف عنده مما تفرع عن الموضوعات القديمة أو تولد منها، شعر التهانى الذى تحول إليه شعر المديح فى بعض جوانبه، وخاصة التهانى بأعياد النيروز والمهرجان كما مر بنا آنفا، وكان أول من افتتح التهانى أحمد بن يوسف للمأمون (١)، ثم أصبح ذلك سنة عامة، ثم أخذ هذا الموضوع يتسع. فأكثروا من التهنئة بالمواليد، وأيضا فإنهم أكثروا من إرفاق الهدايا بأبيات من الشعر الرقيقة، من مثل قول سليمان بن وهب.

وقد أهدى إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر سلال رطب من ضيعته (٢):

أذن الأمير بفضله ...وبجوده وبنيله

لوليّه فى برّه ...بجناه سكّر نخله

فبعثت منه بسلّة ...تحكى حلاوة عدله

وكثيرا ما كانوا يتهادون بالورود والرياحين فى أيام الربيع ويرسلون معها ببعض الأشعار، وكذلك كانوا يتهادون ببعض التحف والطرف النفيسة، وقد يصفون ما يهدونه تظرفا كقول ابن الرومى فى قدح أهداه إلى على بن يحيى المنجم (٣):

وبديع من البدائع يسبى ...كلّ عقل ويطّبى كل طرف

كفم الحبّ فى الملاحة بل أشـ ...ـهى وإن كان لا يناجى بحرف

وسط القدر لم يكبّر لجرع ...متوال ولم يصغّر لرشف

كما يذكر رفاهة العيش التى كانت بها، ولين الحياة ونعيمها وتملأ نفسه أطلال الإيوان وما نقش عليها من الرسوم والصور وخاصة ما سجّل بها من تصوير معركة حامية الوطيس بين الفرس بقيادة كسرى والروم وقعت بإنطاكية سنة ٥٤٠ للميلاد، يقول وقد لفظ كلمة الإيوان باسمها الفارسى «الجرماز (١)»:

فكأن الجرماز من عدم الإد ...س وإخلاقه بنيّة رمس (٢)

لو تراه علمت أنّ الليالى ...جعلت فيه مأتما بعد عرس

وإذا ما رأيت صورة أنطا ...كيّة ارتعت بين روم وفرس

وصف البرق:

من رأى برقا يضئ التماحا ...ثقب الليل سناه فلاحا (٢)

وكأن البرق مصحف قار ...فانطباقا مرة وانفتاحا

فى ركام ضاق بالماء ذرعا ...حيثما مالت به الريح ساحا (٣)

لم يدع أرضا من المحل إلا ...جاد أو بعد عليها جناحا (٤)

وسقى أطلال هند فأضحت ...يمرح القطر عليها مراحا

فالليل أضاءته مصابيح البروق، وكأنها حين تشتعل وتنطفئ مصاحف بأيدى قرّائها تنفتح وتنطبق، وسيول المطر تتدافع من كل صوب نافئة لعابها من جدب إلى جدب ومن حوض إلى حوض. والسحب تمد جناحها وتبسط ركامها والأرض تمرح فى نباتاتها ورياحينها وبطاحها الخضراء.

وتعلق كثيرون بوصف الورد والتعبير عن روعته وفتنته التى تأخذ بالألباب؛ ولابن الجهم فيه قطعة بديعة يتحدث فيها عن رياحين الربيع وطيوره الغردة ونشوة النفوس به نشوة لا تقل عن نشوة الراح يقول **وصف الورد والربيع :**

لم يضحك الورد إلا حين أعجبه ...حسن الرياض وصوت الطائر الغرد

بدا فأبدت لنا الدنيا محاسنها ...وراحت الرّاح فى أثوابها الجدد

ما عاينت قضب الريحان طلعته ...إلا تبيّن فيها ذلّة الحسد

يصور المعركة بين الأسدين، إلى أن خرّ السبع يتضرج فى دمائه، يقول (١):

فلم أر ضرغا مين أصدق منكما ...عراكا إذا الهيابة النّكس كّذبا (٢)

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعا ...وأقدم لما لم يجد عنك مهربا

فلم يغنه أن كرّ نحوك مقبلا ...ولم ينجه أن حاد عنك منكّبا

حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ...ولا يدك ارتدّت ولا حدّه نبا

ولا يكتفى البحترى بوصفه لهذا الحيوان الوحشى، فقد تصادف أن لقيه ذئب فى بعض أسفاره، فنازله وقضى عليه، وأفاض فى تصوير هذا الذئب مستمدّا من ملكته البارعة فى تصوير الحسيات تصويرا يجسد ما يصفه تجسيدا قويّا؛ على شاكلة قوله **وصف الذئب:**

وأطلس ملء العين يحمل زوره ...وأضلاعه، من جانبيه شوى نهد (٤)

له ذنب مثل الرّشاء يجرّه ...ومتن كمتن القوس أعوج منأدّ (٥)

طواه الطّوى حتى استمرّ مريره ...فما فيه إلا العظم والروح والجلد

شكوى الزمان:

أناف الذّنابى على الأرؤس ...فغمّض جفونك أو نكّس (٢)

وضائل سوادك واقبض يديك ...وفى قعر بيتك فاستجلس

وعند مليكك فابغ العلوّ ...وبالوحدة اليوم فاستأنس

لوحة الحسد:

يا من يناجى ضغنه فى نفسه ...ويدبّ تحتى بالأفاعى اللّدّغ

ويبيت تنهض رفرة فى صدره ...حسدا وإن دميت جراحى يولغ (٢)

ما زال يبغى لى بكل قرارة ...حمة الأذى ويشير إن لم يلدغ (٣)

بيان الشقاء والبؤس

إنى رضيت من الرحيق ...بشراب تمر كالعقيق

ورضيت من أكل السّميـ ...ذ بأكل مسودّ الدقيق

ورضيت من سعة الصحـ ...ون بمنزل ضنك وضيق

الشعر التعليمى:

القصيدة المنسوبة إلى أبان والتى قال الرواة عنها إنها كانت فى بدء الخلق، أما الجزء الثانى وهو الخاص بتاريخ الخلفاء، فيعد سابقا فيه فإن الشعراء من قبله لم يفكروا فى نظم هذا التاريخ، ونراه حريصّا فى مفتتح الجزء الأول على ذكر مصادره فيه إذ يقول، وقد بدأ بقصة خلق آدم:

يا سائلى عن ابتداء الخلق ...مسألة القاصد قصد الحقّ

أخبرنى قوم من الثّقات ...أولو علوم وأولو هيئات

تفرّغوا فى طلب الآثار ...وعرفوا موارد الأخبار

ودرسوا التوراة والإنجيلا ...وأحكموا التأويل والتنزيلا

أن الذى يفعل ما يشاء ...ومن له القدرة والبقاء

أنشأ خلق آدم إنشاء ...وقدّ منه زوجه حوّاء

محاضرة : ٧

أعلام الشعراء

١ – بشار

ولد بشار بن برد بن يرجوح بالبصرة لأوائل العقد العاشر من القرن الأول للهجرة. وجدّه يرجوخ من طخارستان ممن سباهم المهلب بن أبى صفرة والى خراسان (٧٩ – ٨١ هـ). ومن أجل ذلك نشأ ابنه برد على الرقّ. وكان أولا فى عداد رقيق خيرة القشيرية امرأة المهلب، ثم وهبته لامرأة من بنى عقيل، وفى ملكها ولد له بشار على الرق، ولم تلبث العقيلية أن أعتقت بردا. وبذلك عدّ هو وابنه فى موالى بنى عقيل. وقد نسب نفسه من جهة أمه إلى الروم، إذ يقول :

وقيصر خالى إذا ...عددت يوما نسبى

وإن صح ذلك كان فارسى الأب رومى الأم، وقد ذكرها حماد عجرد فى بعض أهاجيه لبشار باسم غزالة ، وقد ولدته أعمى فما نظر إلى الدنيا قط، وفى ذلك يقول :

عميت جنينا والذكاء من العمى ...فجئت عجيب الظّنّ للعلم موئلا

وكان أبوه طيّانا يعيش من ضرب اللّبن معيشة تقوم على الشظف، ويقال إنه كان له أخوان: بشر وبشير، وكانا قصّابين يبيعان اللحم، ولم يكونا سويّين إذ كان أحدهما أعرج والآخر أبتر اليد.

وحدّدت آفة بشار حياته منذ نعومة أظفاره، فاتجه إلى المساجد وإلى مربد البصرة ينهل من حلقات العلم والشعر، وأعانته نشأته فى بنى عقيل على أن يتمثل السليقة العربية. ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه.

وكان الهجاء حينئذ يضطرم فى موطنه اضطراما لا بين جرير والفرزدق فقط، بل بين جميع الشعراء، فكان طبيعيّا أن يكون أول موضوع ينظم فيه الغلام. ويقال إن أباه كان يضربه بسببه ضربا مبرحا لكثرة ما يشكو الناس منه، وكانت أمه لا تزال تستعطفه عليه، فيقول: إنى لأرحمه، ولكنه يتعرض للناس، فقال له بشار: قل لهم: أليس الله يقول: (ليس على الأعمى حرج). وعادوا إلى برد يرددون شكواهم، فتلا عليهم الآية الكريمة، فانصرفوا وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار. واشتد

ببشار طموحه إلى إتقان العربية، فيمّم نحو البادية، فأقام فيها فترة مكّنت له فى عربية لسانه وفقهه الدقيق باللغة وشئون البادية.

وعاد إلى البصرة يكثر من الاختلاف إلى حلقات المتكلمين ومجالسهم، كما يكثر من النظم فى المديح وغير المديح، ومن أقدم مدائحه ما نظمه فى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق لسنة ١٢٦ للهجرة . ولما خطب واصل بن عطاء رأس المعتزلة بين يدى هذا الوالى مع بعض الخطباء البلغاء أشاد به وببيانه طويلا ، مما يدل على أن صلة وثيقة كانت منعقدة بينهما، وفى الأغانى أنه كان يحضر مجالسه ويستمع إلى محاوراته مع من يعتنقون مذاهب الثّنويّة المجوسية والدهرية الهندية ، وأكبر الظن أنه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شئ من الفلسفة والمنطق، على أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينه وبين

واصل إذ عرف فيه أنه يدين بالرّجعة أو عودة الإمام المختفى ويكفّر جميع الأمة، وتتابع منه ما يشهد على إلحاده من مثل قوله يشيد بعبادة النار وأنها أفضل من الأرض والطين :

زندقة :

الأرض مظلمة والنار مشرقة ...والنار معبودة مذ كانت النار

وتمادى يفضّل إبليس المخلوق من النار على آدم المخلوق من الطين، قائلا :

إبليس أفضل من أبيكم آدم ...فتنبّهوا يا معشر الفجّار

النار عنصره وآدم طينة ...والطين لا يسمو سموّ النار

مضى يعلن زندقته لا يزدجر مصرحا بأنه لا يؤمن إلا بالعيان وما شهده الحسن . فهو لا يؤمن بجنة ولا نار ولا ببعث ولا حساب، ويحاول أن يثير الغبار فى وجه واصل وغيره من المعتزلة، فيعلن أنه يعارض ما يذهبون إليه من أن الإنسان يخلق أفعاله، ويقول إنه جبرىّ، بل لا شئ سوى الجبر وتعطيل الإرادة الإنسانية .

ولم تلبث رايات العباسيين السوداء أن أقبلت فى سنة ١٣١ للهجرة من خراسان، وطوّحت جيوشهم ببنى أمية ووواليهم يزيد، وانعقد لسان بشار شاعر خصومهم فلم يستطع أن يفد على السفاح ولا على المنصور، وكان نجم خالد بن برمك آخذا فى التألق إذ استوزره المنصور ثم ولاه ولاية فارس، وكأنما رأى فيه بشار لحمة نسب تصله به إذ كان إيرانيّا مثله، فوفد عليه يمدحه، وخالد يجزل له فى العطاء

والإكرام . ويحس بشار فى عمق بإقبال الدنيا عليه، فيتغنّى بشعوبيته ويفخر بقومه الفرس فخرا مسرفا.

ويعود إلى البصرة بعد وفاة عمرو بن عبيد، ولا يكاد العام يستدير حتى يثور العلويون بزعامة إبراهيم بن عبد الله سنة ١٤٥ للهجرة، ويخيل إليه أن الانتصار من إبراهيم وثورته قاب قوسين أو أدنى فيمدحه بقصيدة ميمية رائعة، وسرعان ما يخيب فأله، إذ قمع المنصور الثورة، ويمارع بشار فيحدث تغييرات فى القصيدة، ويجعلها فى مديحه ، غير أنه لا يستطيع الوفود عليه. ويأخذ منذ هذا التاريخ فى مديح ولاة البصرة، وخاصة سلم بن قتيبة الباهلى الذى وليها لخمسة أشهر فى سنتى ١٤٥ و ١٤٦ وعقبة بن سلم الهنائى الأزدى الذى وليها لأربع سنوات من سنة ١٤٧ إلى سنة ١٥١.

ويمضى بشار فى غزله الفاجر، وكان كل شئ فيه ينفّر المرأة، إذ كان قبيح المنظر مجدور الوجه جاحظ العينين قد تغشّاهما لحم أحمر، ولعل هذا القبح ونفور النساء منه هو الذى كان يستثير عنده الغريزة النوعية ويدفعه إلى الإفراط من غزله المكشوف. على أن هذا الغزل نفسه جعل بعض بنات الهوى اللائى كانت تكتظ بهن دور القيان يقبلن عليه ويتغنين فى شعره. وفى هذه الأثناء يصطدم بجماد عجرد وتنشب بينهما معركة هجاء حامية الوطيس.

ويتوفّى المنصور سنة ١٥٨ للهجرة ويخلفه المهدى فتطمح نفسه إلى الوفادة عليه والحصول على جوائزه، ويقدم بغداد ويلجأ إلى يزيد بن مزيد الشيبانى القائد الممدّح المشهور كى يذكره للمهدى ويدخله عليه، ويظهر أن يزيد كان يعرف سيرته فأخذ يسوّفه، غير أن قائدا آخر هو روح بن حاتم بلغه خبره وكأنما كان يود لو يصبح من ممدوحيه، فتبرّع بذكره للمهدى متلطفا، فأمر بإحضاره، ولم يكد يفرغ من إنشاده مدحته التى أعدّها حتى وصله بعشرة آلاف درهم ووهب له عبدا وقينة وخلع عليه خلعا كثيرة ، وجعله من سمّاره ومن يحضرون مجالسه .

وكانت فى المهدى شدة فى شئون الدين وانتهى إليه من غير وجه أن بشارا يفسد النساء والشباب بغزله الفاضح، فأمره أن يكفّ عن ذلك، وكفّ بشار على مضض، وأخذ يردد فى أشعاره أنه ترك الغزل والنسيب نزولا على إرادة الخليفة من مثل قوله :

ا منظرا حسنا رأيته ...من وجه جارية فديته

بعثت إلىّ تسومنى ...برد الشباب وقد طويته

والله ربّ محمّد ...ما إن غدرت ولا نويته

أمسكت عنك وربما ...عرض البلاء وما ابتغيته

إن الخليفة قد أبى ...وإذا أبى شيئا أبيته

ونهانى الملك الهما ...م عن النّسيب وما عصيته

وكان ذلك يؤذى الخليفة منه إذ كان يراه لا يكفّ عن الغزل، وترامت إليه زندقته وما يغرق فيه من مجون، فحرمه جائزته، ولا نصل إلى سنة ١٦٦ حتى يتعقب المهدى الزنادقة ويقتل منهم خلقا كثيرا، ويلزم بشار البصرة إشفاقا على نفسه، غير أنه لا يصمت، بل يأخذ فى رثاء أصدقائه الذين يقتلون على الزندقة ، ويهجو المهدى ووزيره يعقوب بن داود هجاء مقذعا ويقدم المهدى إلى البصرة فى سنة ١٦٨ فيشهد أمامه شهود موثّقون بأن بشارا زنديق، حينئذ يأمر بضربه حتى التلف، فيضرب سبعين سوطا يموت على إثرها ويرمى به فى البطيحة، ويجئ بعض أهله فيحملونه ويدفنونه.

كما يستلهم الكلاميين فى قوة البرهان والحجة، فإذا هو يقول :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا ...صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

فعش واحدا أوصل أخاك فإنه ...مقارف ذنب مرة ومجانبه

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ...ظمئت وأىّ الناس تصفو مشاربه

ونمضى معه فى وصف مشاهد الصحراء وصفا حيّا، حتى إذا انتهى منه فخر بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليمحقونهم محقا، يقول:

إذا الملك الجبّار صعّر خدّه ...مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وكنا إذا دبّ العدوّ لسخطنا ...وراقبنا فى ظاهر لا نراقبه

ركبنا له جهرا بكل مثقّف ...وأبيض تستسقى الدّماء مضاربه

غدونا له والشمس فى خدر أمّها ...تطالعنا والظّلّ لم يجر ذائبه

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه ...وتدرك من نجىّ الفرار مثالبه

كأن مثار النّقع فوق رءوسنا ...وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

معانى هذه الأبيات، وهو يردّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسى الذى أدّى به إلى المبالغة ومجاوزة القصد الذى يعدّ من مميزات الطبع العربى الخالص، كما يردّ إلى محاولة الإبداع فى

التصوير، ويروى أن الأصمعى وقف متعجبا إزاء البيت السابع وأنه قال: «ولد بشار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبّه الأشياء بعضها ببعض فى شعره فيأتى بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله».

ومهما يكن فقد استطاع بشار فى مديحه أن يضيف إلى العناصر البدوية القديمة عناصر مستحدثة، وهى تبدو قليلة فى قصائده الأموية، وكلما أوغلنا معه فى العصر العباسى أحسسنا بنموها، فقد أخذ يتخفف من مشاهد الصحراء ومن المقدمات الطللية مكتفيا بالغزل. ولما أمره المهدى بالكفّ عن الغزل الماجن أخذ يردد–كما أسلفنا–فى مطالع بعض مدائحه له أنه سيكفّ عن الغزل نزولا على مشيئته. وكان قد وصف السفينة فى إحدى مدائحه لابن هبيرة، ونراه يعود إلى ذلك مرارا فى بعض مدائحه للمهدى، وكأنه يريد أن يضيف إلى المقدمات الطللية القديمة مقدمة جديدة من بيئته. وقد عكف على معانى المديح القديمة يولّد فيها ويفرّع ويستنبط دقائق كثيرة من مثل قوله فى خالد بن برمك يصف سماحته ونائله الغمر :

إذا جئته للحمد أشرق وجهه ...إليك وأعطاك الكرامة بالحمد

مفيد ومتلاف سبيل تراثه ...إذا ما غدا أو راح كالجزر والمدّ

مديح:

إنما لذّة الجواد بن سلم ...فى عطاء ومركب للقاء

كخراج السماء سيب يديه ...لقريب ونازح الدار نائى

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ...ف ولكن يلذّ طعم العطاء

يسقط الطير حيث ينتشر الحـ ...بّ وتغشى مازل الكرماء

لا يهاب الوغى ولا يعبد الما ...ل ولكن يهينه للثناء

فخر :

افتخارا يحاول به أن يبلغ عنان السماء على نحو ما رأينا فى قصيدته البائية وعلى شاكلة قوله :

إذا ما غضبنا غضبة مضريّة ...هتكنا حجاب الشّمس أو تمطر الدّما

إذا ما أعرنا سيّدا من قبيلة ...ذرى منبر صلّى علينا وسلّما

وإذا مضينا معه إلى العصر العباسى، عصر انتصار الفرس على العرب وجدنا شعوره بالعصبية القبلية يتحول إلى شعور جديد بالعصبية الجنسية، فإذا هو يفاخر العرب بماضى قومه التليد، وإذا هو يتحول شعوبيّا مارقا يتغنّى بأمجاد قومه الحضارية كافرا بالعرب والعروبة، وتصوّر هذه النزعة عنده أدق تصوير قصيدته :

شعوبية :

هل من رسول مخبر ...عنى جميع العرب

وهى صياح وضجيج بتصوير أبّهة الملك الفارسى وأيضا الملك الرومى، إذ زعم أن الروم أخواله، هاتفا هتافا مقذعا بالعرب ومعيشتهم البدوية الخشنة.

واصطدم بشار بكثير من الشعراء، وجرّ عليه هذا الاصطدام بلاء كثيرا وخاصة من حماد عجرد الذى سلقه بلسانه، وأصلاه بناره، مما جعل معارك هجائيه عنيفة تنشب بين الوعلين على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق وهى معارك كانت تستخدم فيها غالبا مقطوعات قصيرة، تشبه أدقّ الشبه سهاما مسمومة، وقد اختلفت أنواع السموم التى كانا يغمسانها فيها، فتارة يعمدان إلى التهوين والتحقير، وتارة يعمدان إلى انتهاك العرض وقذف الزوجات والأخوات والأمهات، مع محاولة كل منهما تلطيخ صاحبه بتهمة الزندقة. ومما نسوقه من ذلك قول بشار فى أم حماد :

إذا سئلت لم تكن كزّة ...ولكن تذوب ولا تجمد

خمر :

ربّ كأس كالسّلسبيل تعلّلا ...ت بها والعيون عنى نيام

حبست للشّراة فى بيت رأس ...عتّقت عانسا عليها الختام

نفحت نفحة فهزّت نديمى ...بنسيم وانشقّ عنها الزّكام

المحاضرة ٨

أبو نواس :

وأبو نواس الحسن بن هانئ هو أهم شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه، وهو فارسى الأم والأب أيضا، وقد انبهم أمر أبيه وجنسه على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن

الجراح من بنى سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هى أبو نواس، وكذلك حين رأوا فى أخبار هذا الأب أنه كان من جند مروان ابن محمد آخر الخلفاء الأمويين، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام بينما ذهب بعض الأقدمين إلى أنه عربى، وتمادوا فصنعوا له نسبا فى بنى سعد لعشيرة . والصحيح أنه كان مولى فارسيّا من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى والى خراسان لعهد عمر بن عبد العزيز، ويظهر أنه انتظم فى جند الخلافة ، وقد نزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (١٢٧ – ١٣١ هـ) وهناك تعرّف على جارية فارسية تسمى جلبّان كانت تغزل الصوف وتنسجه، فاقترن بها ورزق منها عدة أولاد ، منهم أبو نواس، واختلف الرواة فى السنة التى ولد فيها، والراجح أنها سنة مائة وتسع وثلاثين للهجرة ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفى أبوه، فنقلته أمه إلى البصرة، وقامت على تربيته، وسرعان ما دفعته إلى الكتّاب، فحفظ القرآن وأطرافا من الشعر، وتفتّحت موهبته، فأخذ يلهج ببعض الأشعار، وكان مليحا صبيحا ، ويقال إن صبية وضيئة الوجه مرت به فمازحته ساعة، ثم رمت إليه بتفاحة معضّضة، فقال على البديهة من أبيات :

ليس ذاك العضّ من عيب لها ...إنما ذاك سؤال للقبل

وشبّ الغلام فأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أن أمه رأت أن تلحقه بأحد العطارين، فكان يذهب فى العشىّ إلى المسجد يستمع من أبى عبيدة أخبار العرب وأيامهم، ويلتقط من أبى زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر وساقه القدر ليتعرّف على والبة بن الحباب أحد مجان الكوفة المشهورين، ويقال إن هذه المعرفة نشأت فى البصرة، ويقال بل إن عامل الأهواز طلب صاحبه العطار، فوافقه، وكان عنده والبة، فلم تكد تقع عينه على أبى نواس حتى استظرفه، فحثّه على أن يصطحبه معه إلى الكوفة، ولم يتردد الغلام، فمضى معه ، ويقال إن الذى أرغبه

فيه حسن شعره وما سمعه على لسانه من قوله :

ولها ولا ذنب لها ...حبّ كأطراف الرماح

فى القلب يجرح دائما ...فالقلب مجروح النواحى

رثاء:

أودى جماع العلم إذ أودى خلف ...من لا يعدّ العلم إلا ما عرف

كنا متى ما ندن منه نغترف ...رواية لا تجتنى من الصّحف

ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث حتى قالوا إنه:

«كان عالما فقيها عارفا بالأحكام والفتيا بصيرا بالاختلاف صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه» .

وطلب أيضا علم الكلام عند النظام وغيره من المتكلمين، ومرّ بنا فى الفصل السابق كيف كان يستظهر مصطلحاتهم فى أشعاره، وبلغ من إتقانه لهذا العلم أن أكّد بعض الرواة أنه بدأ متكلما ثم انتقل إلى نظم الشعر . وقد وصله هذا العلم

وعاد إلى بغداد ولم يلبث الرشيد أن توفى وخلفه الأمين (١٩٣ – ١٩٨ هـ) وكان فيه ميل شديد إلى اللهو فحوّل قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والرقص، واتخذ أبا نواس نديما له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر، واستغلّ ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين، فكان يعمل كتبا بعيوبه تقرأ على المنابر بخراسان، وكان مما عابه به أن قال إنه استخلص رجلا شاعرا ماجنا كافرا يقال له الحسن بن هانى ليشرب معه الخمر ويرتكب المآثم ويهتك المحارم، وهو القائل:

مجون:

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر ...ولا تسقنى سرّا إذا أمكن الجهر

وبح باسم من تهوى ودعنى من الكنى ...فلا خير فى اللذات من دونها ستر

وكان يقوم رجل بين يديه فينشد أشعار أبى نواس فى المجون، فاتصل ذلك بالأمين فنهى أبا نواس عن الخمر ولم ينته، حينئذ أغراه الفضل بن الربيع وزيره بحبسه، فحبسه، وقد مضى فى حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشيعا فيها روحه الفكهة بما يصوّر من نسكه وعلامات السجود فى جبهته وحمله للمسابيح أو السّبح فى ذراعه وللمصحف فى لبّته. وعطف عليه الفضل فتلطف له عند الأمين وردّ إليه وكانت قد تقدمت به السنّ وعلته كبرة وشيخوخة، فأخذ ينيب إلى ربه، وينظم أبياتا مختلفة فى الزهد، وفى أخباره ما يدل على أنه تنسك مرارا، ثم عاد إلى غيّه، وربما رقيت فترات هذا النسك إلى زمن الرشيد، وحين كان يلقى به فى السجن، إذ يقال إنه حجّ سنة ١٩٠ للهجرة (٢)، وكأنما هى صحوات كان يفيق فيها ثم يرجع إلى خطاياه. وتوفى الأمين، ولم يلبث أن توفى من

بعده، وقد اختلف الرواة فى تاريخ وفاته ، فمنهم من تقدم به إلى سنة ١٩٥ ومنهم من تأخر به إلى سنة ١٩٩ وقيل بل توفى بعد المائتين بقليل وفى ديوانه رثاء للأمين يشهد بأن وفاته لم تكن قبل سنة ١٩٨. واختلف الرواة أيضا فى سبب وفاته ، فقيل إنه توفى وفاة طبيعية وقيل بل هجا إسماعيل بن نوبخت هجاء مقذعا ذكر فيه أمه ورماه بالبخل والرفض، فدسّ له شربة من سمّ قتلته بعد أربعة أشهر، وقيل بل دسّ له من ضربه حتى مات.

مدح:

يا دار ما فعلت بك الأيّام ...لم تبق فيك بشاشة تستام

ويلاحظ أنه لم يكن يطيل مثل بشار فى وصف رحلته بالصحراء وأنه كان يتعمق أكثر منه فى المبالغة حين يلم بنعت الممدوحين كقوله فى الرشيد :

وأخفت أهل الشّرك حتى إنه ...لتخافك النّطف التى لم تخلق

وقوله أيضا فيه :

ملك تصوّر فى القلوب مثاله ...فكأّنه لم يخل منه مكان

وقوله فى الأمين مخاطبا ناقته :

يا ناق لا تسأمى أو تبلغى ملكا ...تقبيل راحته والرّكن سيّان

محمد خير من يمشى على قدم ...ممّن برا الله من إنس ومن جان

ونراه فى هذه القصيدة يضفى على الأمين هالة كبيرة من القدسية والجلال حتى ليشبهه بالرسول صلى الله عليه وسلم على الرغم مما كان يتردّى فيه من لهو ومجون، واستطرد فى تضاعيف ذلك يقرر حق العباسيين فى الخلافة رادّا ردّا عنيفا على بنى عمهم العلويين.

الطرديات:

وأبو نواس فى أراجيزه ووصفه للصيد وأدواته وجوارحه أكثر تمسكا بالقوالب القديمة، وقد سبقه، كما مر بنا فى غير هذا الموضع، أبو نخيلة وأضرابه من شعراء العصر الأموى مثل الشّمردل إلى اتخاذ الرجز أداة لهذا الوصف، ومضى فى إثرهم يحاكيهم فى التمسك بهذا القالب وكل ما يتصل به من لفظ غريب. وقرن بهذه المحاكاة الشديدة ضروبا من التجديد فى المعانى والصور على شاكلة قوله فى إحدى طردياته :

لما تبدّى الصّبح من حجابه ...كطلعة الأشمط من جلبابه

وانعدل الليل إلى مآبه ...كالحبشىّ افترّ عن أنيابه

هجنا بكلب طالما هجنا به ...ينتسف المقود من كلاّبه

كأن متنيه لدى انسرابه ...متنا شجاع لجّ فى انسيابه

وتمتلئ طردياته بمثل هذه الصور، وهى تعدّ ركنا هامّا فى شعره إذ كان يكثر من التشبيهات والاستعارات، وكان يعرف كيف يجدد فيها وكيف يأتى بالطريف النادر.

الرثاء:

وكان يتخير لمراثيه أسلوبا جزلا مصقولا، وقد يكثر فيه من الغريب، وخاصة إذا كان من يبكيه من اللغويين مثل خلف الأحمر أستاذه، وقد يتخفف من ذلك، ولكنه على كل حال يظل محتفظا بالأسلوب الرصين. وهو فى مراثيه يمتاز بجرارة اللهجة وصدق العاطفة، وربما كان أجودها جميعا مراثيه فى الأمين، وهى تفيض باللوعة والحزن العميق من مثل قوله:

طوى الموت ما بينى وبين محمّد ...وليس لما تطوى المنيّة ناشر

فلا وصل إلا عبرة تستديمها ...أحاديث نفس مالها الدهر ذاكر

وكنت عليه أحذر الموت وحده ...فلم يبق لى شئ عليه أحاذر

لئن عمرت دور بمن لا أودّه ...لقد عمرت ممن أحبّ المقابر

ومن نفس هذا الأسلوب المتين المصقول أشعاره التى نظمها فى السجن يستعطف بها الرشيد والأمين ووزيره الفضل بن الربيع .

وإذا كان أبو نواس اعتدّ فى كل تلك الأغراض بسنن الأسلوب الموروثة، فإنه حاول أن يجدد فى **الهجاء والغزل والمجون، وأهاجيه نوعان:** نوع تمسك فيه بالأوضاع التقليدية، وذلك حين كان يهجو العدنانيين ويفخر بمواليه القحطانيين وكأننا نستمع إلى قصائد من نمط نقائض جرير والفرزدق، فهى تعجّ بالمثالب وأبو نواس لا يشغب على العرب شغب شعوبية كشعوبية بشار، فشعوبيته–إن صح هذا التعبير–من لون آخر، ذلك أنه لا يوازن بين خشونة البدو وحضارة الفرس كما يصنع بشار وغيره من الشعوبيين الحقيقيين، إنما يوازن بين تلك الخشونة والحضارة العباسية المادية وما يجرى فيها من خمر ومجون كان يعكف عليهما عكوفا، ويأخذ ذلك عنده شكل ثورة

جامحة على الوقوف بالرسوم والأطلال وبكاء الديار، ودعوة جارة إلى المتاع بالخمر على شاكلة قوله :

عاج الشقيّ على رسم يسائله ...وعجت أسأل عن خمّارة البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد ...لا درّ درّك قل لى من بنو أسد؟
كم بين ناعت خمر فى دساكرها ...وبين باك على نؤى ومنتضد
دع ذا، عدمتك، واشربها معتّقة ...صفراء تفرق بين الروح والجسد

محاضرة ٩

أبو العتاهية

ولد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان فى «عين التّمر» بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة، وكان أبوه نبطيّا من موالى بنى عنزة، أما أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين. وكان أبوه يشتغل بالحجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به فى بلدته، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته، ومعه ابناه الصغيران: زيد وأبو العتاهية، ولا يكاد يشبّ ثانيهما، حتى نراه ينتظم فى سلك المخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزوامل تميزهم . ولعل فى ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع، إذ نشأ فى أسرة فقيرة مغمورا، لا يعتزّ بأى شئ فى دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة، وكان دميم الوجه قبيح المنظر ، نزعت به نفسه إلى اللهو والمجون، فماذا يصنع؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط فى جماعة المخنّثين، وبذلك كتب عليه أن يكون سيّئ السيرة فى مطالع حياته. وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجرار والفخار، فحاول أن ينقذه مما تردّى فيه، وما زال به حتى أشركه معه فى حرفته، وكان نبع الشعر قد أخذ يتدفّق على لسانه، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسّر من الخزف وما يشترونه من الجرار .

واشتهر أمر أبى العتاهية فى الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجّان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس ووالبة، كما أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين فى مساجد الكوفة، مما أتاح له إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات، وهو فى أثناء ذلك يكثر من نظم رقائق الغزل ومن الغدوّ

والرواح إلى نوادى القيان والمغنين، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغن ناشئ من النّبط دوّت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلى، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد ، لعل بضاعتهما تروج فيها، وفتحت الأبواب لإبراهيم بينما سدّت فى وجه أبى العتاهية، فصمّم على العودة إلى الكوفة، وعرّج فى طريقه على الحيرة، ورأى بها نائحة تسمى سعدى كانت مولاة لبنى معز بن زائدة، وكانت ذات حسن وجمال، فشغفت قلبه حبّا، وأخذ ينظم فيها شعره، غير أنها أعرضت عنه، وتصدّى له مولاها عبد الله ابن معن، ونهاه أن يعرض لها، فعمد إلى هجائه هجاء مقذعا فأنزل به عقابا صارما إذ ضربه مائة سوط، وتوسط بينهما مواليه من عنزة، وكفّ أبو العتاهية لسانه .

ويمّم الكوفة غير أن مقامه لم يطل بها، فإن إبراهيم الموصلى صديقه أقبلت عليه الدنيا حين ولى الخلافة المهدى (١٥٨ – ١٦٩ هـ) وقرّبه مع من قرّب من المغنين، فأرسل إليه أن يلحق به، ليقدمه للخليفة، وطار إليه أبو العتاهية، وأعجب الخليفة بمديحه، وأخذ يغدق عليه جوائزه (٢)، وأوسع له فى مجالسه حتى أصبح أثيرا عنده مقدّما له على كثير من الشعراء، وحتى نراه يقبل شفاعته فى أحد وزرائه وقد أمر بسجنه .

وتمر الأيام بأبى العتاهية باسمة، غير أن سحابة لا تلبث أن تنعقد فى سمائها، فقد تعلّق بجارية من جوارى زوجة المهدى رائطة بنت السفاح، وهى عتبة، وكانت تزدريه كما ازدرته سعدى من قبل، ومضى لا يكفّ عن غزله بها ولا يرعوى، فعرّفت مولاتها خبره وأثارتها عليه، فحدّلت المهدى بشأنه، فغضب لتعرضه لحرمه وجوارى قصره، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميرى أن شفع له لدى المهدى، فعفا عنه وردّ إليه حريته، ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها حبّا صادقا إنما كان يريد الشهرة فى الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن فى حبها وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحب تكلفا ، وقد ظل يذكرها ويتغنّى باسمها طويلا، ولعل ذلك هو الذى جعل المهدى يقول له إنك إنسان معتّه، فاستوى له بذلك لقبه «أبو العتاهية» وغلب على اسمه

وكانت بغداد لعهد المهدى قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة قصد المعاش والتكسب، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة المجان من أمثال مطيع ابن إياس ووالبة وأبى نواس، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبّ معهم من كئوس الخمر واللهو فى دور القيان والمجانة بالكرخ من أمثال دار

القراطيسى وفى الأديرة من مثل دير أشمونى . ويفسد الأمر بينه وبين والبة، فيصليه نارا حامية من هجائه بمثل قوله يعرّض باعتزائه المزيف للعرب، إذ كان ينسب نفسه فى بنى أسد :

النسب:

أوالب أنت فى العرب ...كمثل الشّيص فى الرّطب

هلمّ إلى الموالى الصّيـ ...د فى سعة وفى رحب

فأنت بنا لعمر اللـ ...ـه أشبه منك بالعرب

ويتوفّى المهدى فيخلفه الهادى (١٦٩ – ١٧٠ هـ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه فى كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر، ولا يلبث أن يعتلى الرشيد أريكة الخلافة (١٧٠ – ١٩٣ هـ) وكان منقطعا إليه ملازما له أيام أبيه المهدى، فاتصل ما انقطع فى مدة الهادى القصيرة، وأصبح لا يفارقه فى سفر ولا حضر «وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات السنية» وكثيرا ما كانت تبلغ فى المرة الواحدة مائة ألف درهم .

وظل يعيش اللهو والقصف، حتى كانت سنة ١٨٠ للهجرة، وهى السنة التى نزل فيها الرشيد الرّقّة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والتقشف وليس الصوف. ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى حياته القديمة وإلى ما كان يصنع له من رقائق الغزل، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه، ويأمر بضربه وحبسه فى دار موسّعا عليه حتى يصدع لأمره، ويسترسل أبو العتاهية فى استعطافه بمثل قوله :

إنما أنت رحمة وسلامه ...زادك الله غبطة وكرامه

لو توجّعت لى فروّحت عنى ...روّح الله عنك يوم القيامة

ويرق له الرشيد ويأمر بإطلاقه، ويأخذ منذ هذا التاريخ فى الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

اتهم انه مانوي : وفى ذلك يقول أبو العتاهية

عقيدة مانوية:

لكل شئ معدن وجوهر ...وأوسط وأصغر وأكبر

وكلّ شئ لاحق بجوهره ...أصغره متصل بأكبره

الخير والشرّ هما أزواج ...لذا نتاج ولذا نتاج

لكل إنسان طبيعتان ...خير وشرّ وهما ضدّان

والخير والشر إذا ما عدّا ...بينهما بون بعيد جدّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيمانا بأن للعالم إلهين: إله النور وإله الظلمة، وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى فى العقيدة إلى آخر الشوط، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله :

فيا عجبا كيف يعصى الإلـ ...ـه أم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شئ له آية ...تدلّ على أنه واحد

وكأنه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية.

خير ما يمثّل ذلك مدحته اللامية للمهدى، وفيها يقول :

المديح :

أتته الخلافة منقادة ...إليه تجرّر أذيالها

ولم تك تصلح إلا له ...ولم يك يصلح إلا لها

ولورامها أحد غيره ...لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب ...لما قبل الله أعمالها

وإن الخليفة من بغض لا ...إليه ليبغض من قالها

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف، وألفاظها تسيل نعومة وعذوبة. وأكبر خليفة عنى بمديحه هرون الرشيد فقد كان يمدحه فى سلمه وحربه وفى كل المناسبات.

وقد نظم استعطافات كثيرة للرشيد حين حبسه، وهى لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع، حتى ليبادر الرشيد بالعفو عنه كما أسلفنا لمثل قوله :

أنا اليوم لى، والحمد لله، أشهر ...يروح علىّ الهمّ منكم ويبكر

تذكّر أمين الله حقّى وحرمتى ...وما كنت تولينى لعلك تذكر

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلّفه فيه يدل على إحكامه لسهامه، حتى لنرى والبة بن الحباب يفرّ على وجهه منه إلى الكوفة، ومن أوائل هجائه أشعاره فى عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى

سعدى النائحة، وقد صّوره فى بعض هذه الأشعار صورة ندى لها وجهه طويلا، إذ أخلاه من العقل والشجاعة بل أيضا من الرجولة، حتى ليقول على لسانه :

أنا فتاة الحىّ من وائل ...فى الشّرف الشامخ والنّبل

ما فى بنى شيبان أهل الحجى ...جارية واحدة مثلى

قد نقّطت فى وجهها نقطة ...مخافة العين من الكحل

إن زرتموها قال حجّابها ...نحن عن الزّوّار فى شغل

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه يمثل هذه النبال المصمية، فمن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سلم الخاسر، فما هو إلا أن قال فيه:

تعالى الله يا سلم بن عمرو ...أذنّ الحرص أعناق الرجال

الرثاء:

وبين أيدينا له مراث مختلفة، لعل أحرّها مراثيه فى صديقه على بن ثابت الزنديق، وقد أنشدنا منها أطرافا فى الفصل السابق، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلا ندبا كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله :

فتى لم يملّ النّدى ساعة ...على عسره كان أو يسره

أتته المنيّة مغتالة ...رويدا تخلّل من ستره

فخلّى القصور لمن شادها ...وحلّ من القبر فى قعره

وأصبح يهدى إلى منزل ...عميق تؤنّق فى حفره

أشدّ الجماعة وجدا به ...أشدّ الجماعة فى طمره

خمريات :

وليس له خمريات كثيرة وكأنما عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به من شعره، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى بنعت مرقص للخمر وندمانها وساقيها ومن يلمّ بهم من الجوارى الحسان، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته الماجنة فى الكوفة:

لهفى على الزّمن القصير ...بين الخورنق والسّدير

إذ نحن فى غرف الجنا ...ن نعوم فى بحر السّرور

فى فتية ملكوا عنا ...ن الدهر أمثال الصقور

غزل :

كأنها من حسنها درّة ...أخرجها اليمّ إلى السّاحل

كأن فى فيها وفى طرفها ...سواحرا أقبلن من بابل

لم يبق منى حبّها ما خلا ...حشاشة فى بدن ناحل

يا من رأى قبلى قتيلا بكى ...من شدّة الوجد على القاتل

زهد:

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تعدّ انقلابا فى حياته، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد، وظل نحو ثلاثين عاما يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق، فالكل مصيره إلى الفناء والكل وشيك الزوال، والكل سيصبح ترابا فى تراب يقول:

بين عينى كلّ حىّ ...علم الموت يلوح

نح على نفسك يا مس ...كين إن كنت تنوح

وقبلك داوى الطبيب المريض ...فعاش المريض ومات الطبيب

وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثا عن البعث والنشور، ولكنه لا يسترسل فى ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان، كما أشرنا إلى ذلك آنفا، بل يلم إلماما بالبعث والحساب على شاكلة قوله :

فلو أنا إذا متنا تركنا ...لكان الموت غاية كلّ حىّ

ولكنا إذا متنا بعثنا ...ونسأل بعده عن كل شىّ

وطبيعى أن يطبع أسلوبه فى الزهد بطوابع الأسلوب الوعظى من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر. ونراه يشيع فى زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قوله :

إلهى لا تعذّبنى فإنّى ...مقرّ بالذى قد كان منّى

ومالى حيلة إلا رجائى ...لعفوك إن عفوت وحسن ظنّى

شكوى :

يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار، يقول فى تضاعيفها :

من مبلغ عنى الإما ...م نصائحا متتاليه

أنى أرى الأسعار أسـ ...عار الرعيّة غاليه

وأرى المكاسب نزرة ...وأرى الضرورة فاشيه

من يرتجى للناس غيـ ...رك للعيون الباكيه

من مصبيات جوّع ...تمسى وتصبح طاويه

من يرتجى لدفاع كر ...ب ملمّة هى ماهينه

من للبطون الجائعا ...ت وللجسوم العاريه

ألقيت أخبارا إلي ...ك من الرعية شافيه

محاضرة (١٠)

أبو تمام

هو حبيب بن أوس الطائى، ولد بقرية جاسم بقرب دمشق على الطريق منها إلى طبرية، وقد تعددت الروايات فى سنة ولادته، فقيل سنة ١٧٢ وقيل سنة ١٨٢ وقيل سنة ١٨٨ وقيل سنة ١٩٢ ونسب إليه أنه قال: ولدت سنة ١٩٠. والآراء متضاربة فى صحة نسبه من طيئ، فقد هجاه بعض معاصريه بأنه نبطى ، وزعم قوم أن أباه كان نصرانيّا يسمّى تدوس وأنه حرّفه إلى أوس وانتسب فى طيئ. وظن مرجليوث فى ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية أنه ربما كان اسم أبيه المذكور فى المراجع القديمة على أنه تدوس محرف عن «تيودوس» وبنى طه حسين على هذا الظن أنه يونانى الأصل ، بينما ذهب بروكلمان إلى أن اسم تدوس يشيع بين نصارى السريان. ونصرانية أبيه–إن صحت–لا تنفيه من العرب ولا من طيئ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها، وجمهور من ترجموا له من الثقات يذهبون إلى أنه طائى صليبة ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيئ وأنه اختار منها أكثر ممدوحيه، ونوّه تنويها عظيما بمن سجّلوا لها فى عصره أمجادا حربية، مما يدل على أنه طائى عريق وعربى أصيل.

وهو يشير دائما فى مديحه له إلى حرمته منه وأنه يمنى مثله، ويلجّج فى الافتخار بملوك اليمن وأقيالها القدماء. ويظهر أنه عاد فازورّ عنه، مما جعله يكثر من عتابه، حتى إذا يئس منه أصلاه بنار هجائه. وليس بين أيدينا ما يدلّ دلالة صريحة على تاريخ قصده إلى عياش، غير أن فى كتاب

«الولاة والقضاة» للكندى أشعارا له تتصل بأحداث مصر بين سنتى ٢١١ و ٢١٤ مما يؤكد مقامه بها فى تلك الفترة، وفى هذه الأشعار ما يدل على أنه تعرّف على عبد الله بن طاهر فى ولايته على مصر (٢١١ – ٢١٣ هـ) وقد نوّه به وبقضائه فيها على الفتن. وفى ديوانه بيتان هجا بهما المطلب بن عبد الله الخزاعى معلنا له أن مدحه فيه كان كذبا وبهتانا، وقد ولى المطلب مصر فى سنتى ١٩٨ و ١٩٩ للهجرة وكان يقيم عياش بن لهيعة على شرطته، فهل يعنى ذلك أنه نزل مصر مرتين: مرة فى أواخر القرن الثانى ومرة فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث؟ . الحق أنه ليس بين أيدينا ما يجعلنا نقطع برأى فاصل فى ذلك، وخاصة أنه ليس فى ديوانه مديح للمطلب، وربما قال هذين البيتين بعد عزل المطلب عن مصر أو ربما كانا منحولين عليه.

وقد عاد إلى موطنه فى سنة ٢١٤ والمآتم منصوبة فى كل مكان على بطل طيئ المغوار محمد بن حميد الطوسى الذى كافح بابك كفاحا مريرا، وخانه القدر فسقط فى ميدان النضال لأوائل هذه السنة. وتعمقت الحادثة نفس أبى تمام فبكاه بكاء حارّا أخذ يدور على الألسنة وأخذ يحتلّ به مكانة ممتازة بين الشعراء وأخذ يتردّد على الرقة والموصل ويمدح أجوادهما مثل حبيش بن المعافى قاضى نصيبين ورأس عين ومحمد بن حسان الضبى، ونراه يقول فى إحدى مدائحه له :

بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا ...بالرّقّتين وبالفسطاط إخوانى

وما أظن النّوى ترضى بما صنعت ...حتى تشافه بى أقصى خراسان

وقد مضى يشيد بقائدين من قواد هذه الحروب، أما أولهما فخالد بن يزيد ابن مزيد الشيبانى والى أرمينية وقد سجّل له انتصارا حربيّا ماحقا على تيوفيل إمبراطور بيزنطة مصورا كيف ولّى الأدبار وكيف استولى الرعب على جنوده، يقول :

ولما رأى توفيل راياتك التى ...إذا ما اتلأبّت لا يقاومها الصّلب

تولّى ولم يأل الرّدى فى اتّباعه ...كأن الرّدى فى قصده هائم صبّ

كأن بلاد الروم عمّت بصيحة ...فضمّت حشاها أو رغا وسطها السّقب

(وواضح أنه يشير إلى سنة تسع عشرة بعد المائتين مما يؤكد أنه كان ببغداد فى تلك السنة، وكأنه شدّ رحاله إليها بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ وقد أخذت تتوثق علاقة بينه وبين إسحق بن إبراهيم

المصعبى القائم على شرطة بغداد وأعمالها، ونراه يشيد بانتصاراته على المحمّرة الذين ثاروا بالجبل شمالى إيران لسنتى ٢١٨، ٢١٩ إشادات رائعة .

وما نكاد نتقدم فى سنة ٢٢٤ حتى يخلع الطاعة مازيّار بطبرستان، وما تزال جيوش الخلافة تنازله حتى تأتى به صاغرا إلى «سرّ من رأى» فى سنة ٢٢٥ فيقتل ويصلب بجانب بابك. وتجمعت أدلة قاطعة على خيانة الأفشين وزندقته وأنه يبطن الكفر وينتوى الغدر بالدولة والإيقاع بأبطالها وخاصة من العرب أمثال أبى دلف، فيأمر المعتصم بالقبض عليه وإلقائه فى غيابات السجون، ويموت، فيصلب بجانب بابك، ثم يحرق بالنار التى كان يعبدها من دون الله، وما يلبث أبو تمام أن ينشد المعتصم قصيدته البديعة :

الحقّ أبلج والسيوف عوارى ...فحذار من أسد العرين حذار

وقد صوّر فيها كفران الأفشين بالإسلام وبنعم الدولة ونقضه لما بينه وبين المعتصم من عهود ومواثيق وبغيه الذى أورده موارد الهلاك، وما كان من حرقه بالنار وصلبه قبل ذلك بجوار بابك ومازيار يقول:

ما زال سرّ الكفر بين ضلوعه ...حتى اصطلى سرّ الزّناد الوارى

نارا يساور جسمه من حرّها ...لهب كما عصفرت شقّ إزار

صلّى لها حيّا وكان وقودها ...ميتا ويدخلها مع الفجّار

والمديح أهم الأغراض التى تتجلّى فيها خصائصه، وهو فى كثير منه، بل فى جمهوره، يحتفظ بالمقدمة الطللية وما يتصل بها من التشبيب والنسيب، مودعا فيها كثيرا من لفتاته وخواطره النادرة التى تدل على سعة خياله وتأمله الطويل وأنه يخضع التفكير للشعر، وكأنه فيلسوف يخضع فلسفته للشعر أو شاعر يخضع شعره للفلسفة والفكر الدقيق، وهل هناك جانب فى شعره إلا وهو يفكر فيه تفكيرا متصلا، وهو تفكير كان يعرف كيف يصوغ به خواطره وكيف يبرزها فى معارض من التصاوير والحكم الرشيقة من مثل قوله فى تصوير أيام عشقه الماضية :

أعوام وصل كاد ينسى طولها ...ذكر النّوى فكأنها أيام

ثم انبرت أيام هجر أردفت ...بجوى أسى فكأنها أعوام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ...فكأنها وكأنهم أحلام

وقد ردّد كثيرا فى تضاعيف نسيبه شكواه المرة من الزمن وما ينزله به من الخطوب والكوارث، حتى ليقول ضجرا متأففا منه ومن سياسته الخرقاء (٤):

لقد ساسنا هذا الزمان سياسة ...سدى لم يسسها قطّ عبد مجدّع

تروح علينا كلّ يوم وتغتدى ...خطوب كأن الدهر منهن يصرع

وقد أشرنا فى الفصل السابق إلى أنه هو الذى ألهم ابن الرومى والمتنبى الشكوى من الزمن وما يصبه على الناس من البلاء وما يتصل بذلك من حكم، وأيضا فإنه هو الذى ألهم المتنبى اعتداده بنفسه وما طوى فى ذلك عنده من فخر محتدم، واقرأ له هذه الأبيات التى ساقها بعد نسيبه فى مديحه للحسن بن سهل :

وغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرق ...وشرّقت حتى قد نسيت المغاربا

خطوب إذا لاقيتهنّ رددننى ...جريحا كأنى قد لفيت الكتائبا

وقد يكهم السيف المسمّى منيّة ...وقد يرجع المرء المظفّر خائبا

وكنت امرءا ألقى الزمان مسالما ...فآليت لا ألقاه إلا محاربا

وهو نفس نغم الفخر والاعتداد بالنفس الذى نلقاه عند المتنبى مع ما يمسح عليه ويتخلله من شكوى الدهر، ومع ما يسوده من الشعور بقوة النفس وصلابتها وأنها أقوى عودا وأصلب من الزمن، فهى لا تتخاذل أمامه ولا تضعف بل تحاول أن تقهره وتطعنه الطعنة المصمية.

ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة، من حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذنابها المزركشة، وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع، يقول :

غنّى فشاقك طائر غرّيد ...لما ترنّم والغصون تميد

ساق على ساق دعا قمريّة ...فدعت تقاسمه الهوى وتصيد

إلفان فى ظلّ الغصون تألّفا ...والتفّ بينهما هوى معقود

يتطّعمان بريق هذا هذه ...مجعا وذاك بريق تلك معيد

الرثاء:

مراثيه لابن حميد الطوسى الطائى، وأخذ يندبه بقصيدته الرائية الخالدة بمثل قوله :

فتى كلما فاضت عيون قبيلة ...دما ضحكت عنه الأحاديث والذّكر
فتى مات بين الطّعن والضّرب ميتة ...تقوم مقام النصر إن فاته النّصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ...من الضّرب واعتلّت عليه القنا السّمر
وقد كان فوت الموت سهلا فردّه ...إليه الحفاظ المرّ والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما ...هو الكفر يوم الرّوع إن فاته الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله ...وقال لها من تحت أخمصك الحشر

الاعتذار :

وكان يجيد العتاب والاعتذار، ومن أروع اعتذاراته ما قدمه لابن أبى دؤاد حين غضب عليه لنيله من مضر فى إحدى قصائده لأبى سعيد الثغرى الطائى، فقد أحسّ أنه أذنب ذنبا عظيما وأخذ يستعطفه بمثل قوله :

أتانى عائر الأنباء تسرى ...عقاربه بداهية نآد
نثا خبر كأن القلب أمسى ...يجرّ به على شوك القتاد
كأن الشمس جلّلها كسوف ...أو استترت برجل من جراد
بأنى نلت من مضر وخبّت ...إليك شكيتّى خبب الجواد

الفخر:

فله فيه قصائد ينوّه فيها بقومه من طيئ تنويها على شاكلة قوله يصور مكارمهم ومحامدهم :

أنا ابن الذين استرضع الجود فيهم ...وسمّى فيهم وهو كهل ويافع
مضوا وكأن المكرمات لديهم ...لكثرة ما أوصوا بهنّ شرائع
بهاليل لو عاينت فيض أكفّهم ...لأيقنت أن الرزق فى الأرض واسع

محاضرة ١١

الأغرض الشعرية :

المديح :

إذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يحصوا ويستقصوا، وإنما يهمنا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم فى الخلافة مناضلين عنهم خصومهم ، ويلمع اسم أبى دلامة فى بلاطهم جميعا، وكانت فيه دعابة جعلتهم يتخذونه لهم نديما، ومن أوائل من استظهروا فى أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نخيلة، وهو من مخضرمى الدولتين: الأموية العباسية فى مديح السفاح إذ يقول :

حتى إذا ما الأوصياء عسكروا ...وقام من تبر النبىّ الجوهر

أقبل بالناس الهوى المشهّر ...وصاح فى الليل نهار أنور

وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة، فليس العلويون أصحابها إنما أصحابها العباسيون الذين استخلصوا لها كما يستخلص الجوهر. وقد مدح المنصور الشاعر أبا نخيلة وقد روى له أرجوزة يغريه فيها بخلع ولى عهده عيسى بن موسى وعقد العهد لابنه محمد المهدى يقول :

ليس ولىّ عهدنا بالأسعد ...عيسى فزحلفها إلى محمّد

من عند عيسى معهدا عن معهد ...حتى تؤدّى من يد إلى يد

فناد للبيعة جمعا نحشد ...فى يومنا الحاضر هذا أو غد

ويعدّ المهدى أول خليفة فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء، فقد مضى يجزل لهم فى العطاء ومضوا يجزلون له فى الثناء، وفيه يقول ابن الخياط، إن صح أنها له :

لمست بكفى كفّه أبتغى الغنى ...ولم أدر أن الجود من كفّه يعدى

فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ...أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

وممن أكثروا من مديحه مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو دلامة وبشار وأبو العتاهية والسيد الحميرى ونصيب الأصغر والعمانى الراجز ومن مدّاحه الحسين بن مطير مولى بنى أسد، وكان يغلو فى مديحه غلوا شديدا حتى ليرفعه على البشر درجات من مثل قوله :

لو يعبد الناس يا مهدىّ أفضلهم ...ما كان فى الناس إلا أنت معبود

أضحت يمينك من جود مصوّرة ...لا بل يمينك منها صوّر الجود

لو أن من نوره مثقال خردلة ...فى السود طرّا إذن لابيضّت السود

ونرى كثيرين من الشعراء لعهده يدافعون عن حقه وحق العباسيين فى الخلافة منكرين على العلويين حقهم فيها، فهم ورثتها الشرعيون وحصونها الحقيقيون، وفى ذلك يقول ابن المولى :

وإن أمير المؤمنين ورهطه ...لأهل المعالى من لؤىّ بن غالب

أولئك أوتاد البلاد ووارثو النّ ...بىّ بأمر الحقّ غير التكاذب

ومضى فى القصيدة يذكر بلاء العباسيين فى تفويض الحكم الأموى والأخذ للعلويين بثأرهم الذى كان مهدرا وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شفيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى، وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه.

وكان الهادى منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه ، ومن مدّاحه أبو الشّيص والعمانى وابن مناذر وعمر بن سلمة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد ومنصور النّمرى وأبو الغول الطّهوى، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون :

بنيت لعبد الله بعد محمّد ...ذرا قبّة الإسلام فاخضرّ عودها

هما طنباها–بارك الله فيهما– ...وأنت–أمير المؤمنين–عمودها

الهجاء:

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية خفت حدّته فى هذا العصر، حتى كاد يتلاشى، إلا بقايا قليلة تمثلت فى نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد، كما تمثلت فى نقائض دعبل وأبى سعد المخزومى، ومرجع ذلك إلى تطور واسع فى الحياة، جعل الفخر الجنسى يحل محل الفخر القبلى، مما دفع إلى ظهور الشعوبية، وحقّا بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفى فى مثل قوله مفتخرا بقبيلته بكر:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ...ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وكان أبو نواس–كما مرّ بنا–يفتخر بمواليه القحطانيين افتخارا حادّا، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية، وقد ذكرنا قبلا تهاجى حماد عجرد وبشار كانت فى حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتى مع أصدقائه مثل مطيع بن إياس، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان. ولعل شاعرا لم يهج فى هذا العصر

كما هجى أبان بن عبد الحميد، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبى نواس، وممن أكثر من تبادل الهجاء معه المعذّل بن غيلان، وفيه يقول :

صحّفت أمّك إذ سمّ ...تك بالمهد أبانا

قد علمنا ما أرادت ...لم ترد إلا أتانا

صيّرت باء مكان التّ ...اء والله عيانا

قطع الله وشيكا ...من مسمّيك اللّسانا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه، وسلقوه بألسنة حداد، وفى مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشى، وكان كثيرا ما يهجوه بأنه ليس عربيّا وأنه دعىّ فى ولائه لبنى سعد العشيرة القحطانيين، مما جعله يرد عليه بمثل قوله :

وجدنا الفضل أبعد من رقاش ...من الأتن ادّعت فيها الفيول

وجدنا الفضل أكرم من رقاش ...لأن الفضل مولاه الرسول

يشير بذلك إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنا مولى من لا مولى له».

قد مرّ بنا تهاجى أبى العتاهية ووالبة، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصارا حاسما حتى فرّ منه راجعا إلى الكوفة وخمل ذكره. واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك فى ترجمتنا لأولهما، وكان سلم يرميه بأنه كاذب فى زهده ويرميه أبو العتاهية بشحّ نفسه وما يجره ذلك عليه من الذل. وممن اصطدم به مروان بن أبى حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجنّىّ وله يقول :

غدا اللّؤم يبغى مطرحا لرحاله ... فنقّب فى برّ البلاد وفى البحر

فلما أتى مروان خيّم عنده ... وفال رضينا بالمقام إلى الحشر

وليست لمروان على العرس غيرة ... ولكنّ مروانا يغار على القدر

وكان دعبل كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه، وربما كان أهمّ شاعر حسده أبا تمام، حتى كان لا يكتفى بهجائه، بل يدعى عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين وفيه يقول :

أدعبل إن تطاولت الليالى ...عليك فإن شعرى سمّ ساعه

وما وفد المشيب عليك إلا ...بأخلاق الدناءة والوضاعه
ووجهك إن رضيت به نديما ...فأنت نسيج وحدك فى الرّقاعه
ولو بدّلته وجها بوجه ...لما صلّيت يوما فى جماعه

الغزل:

كثر الغزل فى هذا العصر كثرة مفرطة، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشعراء عنوا بالنظم فيه، وهى عناية أعدّته لكى يزدهر ازدهارا واسعا، إذ تداوله أفذاذ الشعراء، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد فى المعانى القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة. وقد مضوا يتسعون بكل صوره القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة، فقد استبقوا هذا الوصف، وحاولوا أن يبثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضرى المرهف، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الرابع.

وقد مضى الغزل يجرى فى نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بنى أمية، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفا، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات ورومیات، إماء وقيان من كل جنس، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويشعن فيها كثيرا من صور التحلل الخلقى، مستبدات بمكان الحرائر القديم من الشعراء..

وكان يجرى بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقا شديدا بالقياس إلى عصر بنى أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادى الحجاز وحتى تجرى أسراب منه فى مكة عند أمثال عبد الرحمن الجشمىّ الملقب بالقسّ لنسكه وفى المدينة عند أمثال عروة بن أذينة. ومن أعلامه فى البوادى قيس بن ذريح وجميل بن معمر العذرى، حيث نجد الحب النقى الطاهر الذى يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه، حتى ليصبح ضربا من الهيام القوى الحادّ الذى يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته فى شعر عذب لا يخدش حياء، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذى لا ينتهى. وطبيعى أن يضعف هذا التيار فى العصر العباسى الأول الذى قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض

الجوارى ثم بعن وضرب بينهم وبينهن حجاب صفيق، فعاشوا يتعذبون بالحب، وعاش الحب فى قلوبهم قويّا حادّا، ومن خير من يصور ذلك على بن أديم الكوفى الذى أحب جارية تسمى «منهلة» منذ صغرها، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين، فطار لبه، وبكاها بكاء حارّا بمثل قوله:

صاحوا الرحيل وحثّنى صحبى ...قالوا الرواح فطيّروا لبّى

لا صبر لى عند الفراق على ...فقد الحبيب ولوعة الحبّ

ويقول أبو الفرج: «له حديث طويل معها فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما، فيه ذكر قصصهما وقتا وقتا وما قال فيها من الأشعار، وأمرهما متعالم عند العامة» وفيها يقول :

يا نصب عينى لا أرى ...حيث التفتّ سواك شيّا

إنى لميت إن صدد ...ت وإن وصلت رجعت حيّا

وعلى شاكلته محمد بن أمية، وكان يهوى جارية تسمى خداع رآها تغنّى ببعض دور النخاسة، فشغف بها شغفا شديدا واتصلت زياراته لها، وبادلته حبّا بحب، ولقيته، ولكنها ظلت تدافعه عن نفسها، وكثيرا ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره. وهو يقول لها دائما إنى أحبك إنى أنتظرك، من مثل قوله:

ربّ وعد منك لا أنساه لى ...أوجب الشكر وإن لم تفعلى

أقطع الدهر بظنّ حسن ...وأجلّى غمرة ما تنجلى

كلما أمّلت يوما صالحا ...عرض المكروه لى فى أملى

وأرى الأيام لا تدنى الذى ...أرتجى منك وتدنى أجلى

وبينما هو يمنى نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدى. فحجبت عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلة. واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شئ من أمره، فمضى يتغبى بها طويلا، وكان خلاّنه يلومونه ويقولون له: إنها تبخل عليك بودّها، فدعها إلى غيرها، فينشدهم مثل قوله:

أأن حجبت عنى أجود لغيرها ...بودّى وهل يغرى المحبّ سوى البخل

أسرّ بأن قالوا تضنّ بودّها ...عليك ومن ذا سرّ بالبخل من قبلى

إن الغزل العذرى فى العصر العباسى الأول قد أخذ يضيق مجراه. لأنه لا يبلغ من التأثير فى النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأموى، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن، فإذا هو يجرى فيه التكلف ولا يكاد يؤثر فى العاطفة والشعور إلا قليلا.

على أنه من الخطأ أن نصع حدّا فاصلا فى هذا العصريين **الغزل العفيف والغزل الصريح** فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتشمون ولا يتوقّرون، والذين يعبرون عن الحب الجسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرّح تجعلهم يقتربون أحيانا من أصحاب الحب العفيف، واقرأ فى بشار مثلا فستجد عنده كثيرا من الغزل الآثم، وستجد بجانبه غزلا، فيه لوعة. وفيه ألم وسهاد، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام، على نحو ما يلقانا فى أشعاره لصاحبته عبدة، ومثله أبو نواس فى أشعاره لجنان جارية الثقفين، وقد ظلت تحلق بعيدا عنه وراء السحب. والحب يضنيه ويبرّح به، ونضرب مثلا من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحيانا يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقا يفضى إلى كثير من السعة والجمال، وهو هذه القطعة التى أنشدها صاحب الأغانى لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز، وكان خليعا ماجنا فى أول أمره، وفيها يقول لصاحبة له :

أحبّك حبّين: لى واحد ...وآخر أنّك أهل لذاك

فأما الذى هو حبّ الطّباع ...فشئ خصصت به عن سواك

وأما الذى هو حبّ الجمال ...فلست أرى ذاك حتى أراك

ولست أمنّ بهذا عليك ...لك المنّ فى ذا وهذا وذاك

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلا قليلا على هذه القطعة، فأصبحت أمّا للشعر الصوفى كله على نحو ما سنرى فى حديثنا عن شعراء الزهد. وفى الأغانى حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه، كانت تجرى على ألسنة المجان وأشباههم.

وظاهرة خامسة تقترن بالجوارى اللائى كان ينظم فيهن الشعراء، وذلك أن كثيرا منهن كن مثقفات يحسنّ صوغ الشعر ونظمه، فكان الشعراء يراسلونهن، وكانوا أحيانا يفضون إليهن ويتطارحون معهن شعر الغزل. ومن أشهرهن فى هذا الباب عريب جارية المأمون ومتيم جارية على بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز فى آخر كتابه «طبقات الشعراء» فصولا لطائفة منهن، على رأسهن عنان جارية الناطفى، ويروى بعض محاوراتها مع أبى نواس، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفى مولاها قد ضربها وهى تبكى فقال:

بكت عنان فجرى دمعها ...كالدرّ قد توبع فى خيطه

فقالت، والعبرة فى حلقها:

فليت من يضربها ظالما ...تجفّ يمناه على سوطه

ويروى ابن الجراح أن شخصا وجد بيتا فى كتاب، أعجبه، فطلب من يجيزه وعزّ عليه الطلب، فلجأ إليها، وأنشدها البيت:

وما زال يشكو الحب حتى سمعته ...تنفّس من أحشائه أو تكلّما

فما لبثت أن قالت:

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه ...إذا ما بكى دمعا بكيت له دما

المحاضرة ١٢

العباس بن الأحنف :

عربى من بنى حنيفة، كان آباؤه ينزلون فى خراسان، واتصلوا بالعباسيين ولمع منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة، ومنشأ العباس ومرباه ببغداد، ويظهر أنه نشأ فى نعمة وثراء، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذى كان يجذب إليه عامة الشعراء طلبا للنوال والعطاء. وقد أخذ يعيش حياة مترفة، يختلط فيها بالشعراء من أمثال أبى نواس وغير أبى نواس، ولكن دون أن يتردّى فى خلاعتهم ومجونهم. وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم، وفى ذلك يقول ابن المعتز:

«كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه، وكان جوادا لا يليق درهما ولا يحبس ما يملك». وفى أشعاره وصف للكرة والصولجان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة. ويقولون إنه كان فيه ظرف.

وكأنه كان مثال العربى البغدادى المهذب فى عصره الذى أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذا كان له أثره فى ذوقه المضفى المهذب وشعوره الرقيق المرهف. وقد مضى ينفق حياته فى التغنى بعواطفه وحبه، وفى ذلك يقول أبو الفرج: «كان العباس شاعرا غزلا ظريفا مطبوعا. . وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف فى شئ من هذه المعانى، وقدّمه أبو العباس المبرد فى كتاب الروضة على نظرائه وأطنب فى

وصفه. وقال: رأيت جماعة من الرواة الشعر يقدمونه، وقال: كان العباس من الظرفاء، ولم يكن من الخلعاء، وكان غزلا ولم يكن فاسقا، وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه، حتى أصبح من ندمائه، وحتى صحبه فى غزواته بأرمينية وأذربيجان من غزله قال:

العاشقان كلاهما متجنّب ...وكلاهما متعتّب متغضّب

صدّت مغاضبة وصدّ مغاضبا ...وكلاهما مما يعالج متعب

راجع أحبّتك الذين هجرتهم ...إن المتيّم قلما يتجنّب

إن التجنّب إن تطاول منكما ...دبّ السّلوّ له فعزّ المطلب

وألقاها إلى إبراهيم الموصلى فغنّى بها الرشيد، فلما سمعها بادر إلى ماردة فترضّاها. ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم مناصفة وأمر لهما الرشيد بأربعين ألفا.

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر، وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز، فوقعت فى قلبه، وأخذ يكثر من زياراته، وهو إنما يريدها، وعرفت حبه، فكانت تصدّ عنه. وهو يزداد حبّا وشكوى من أنها لا تقبل عليه، وأكثر من تصوير إعراضها عنه بمثل قوله:

قالت ظلوم سميّة الظّلم ...مالى رأيتك ناحل الجسم

يا من رمى قلبى فأقصده ...أنت العليم بموضع السّهم

أخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصورا سهاده وما دلعته من نيران العشق فى قلبه وغدا مستهاما بها يحبها كل الحب ويفتن بها كل الفتون، حتى لكأنها غدت ليلى وغدا المجون، فهو دائما يصف صبابته بها ووجده وجدا لم يجده أحد، وجدا يتعمقه حتى ليصطلى بناره المحرقة، وقد مضى يصور ذلك لا فى قصيدة أو قصائد معدودة وإنما فى ديوان رائع، تجد فيه النفوس غذاء روحيّا ممتعا، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذرى الأموى، بما يصف من حب لا يخمد أواره، من مثل قوله:

الحبّ أول ما يكون لجاجة ...تأتى به وتسوقه الأقدار

حتى إذا سلك الفتى لجج الهوى ...جاءت أمور لا تطاق كبار

نزف البكاء دموع عينك فاستعر ...عينا لغيرك دمعها مدرار

من ذا يعيرك عينه تبكى بها ...أرأيت عينا للبكاء تعار

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات، وربما زارته زورة قصيرة ومضت، مخلّفة وراءها حسراته وآلامه وعذابه، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلا أو قصيرا أو أن تزورّ عنه فى بعض زياراته لها، فكان يجزع أشد الجزع ويبكى أحر البكاء بمثل قوله:

أبكى الذين أذاقونى مودّتهم ...حتى إذا أيقظونى للهوى رقدوا

جاروا علىّ ولم يوفوا بعهدهم ...قد كنت أحسبهم يوفون إن عهدوا

لأخرجنّ من الدنيا وحبّكم ...بين الجوانح لم يشعر به أحد

وخرجت من ملك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسى وحجّ بها، فمضى يبكيها بدموع غزار مصورا حبه لها وهيامه فى أشعار كثيرة من مثل قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها:

أزين نساء العالمين أجيبى ...دعاء مشوق بالعراق غريب

كتبت كتابى ما أقيم حروفه ...لشدة إعوالى وطول نحيبى

أخطّ وأمحو ما أخطّ بعبرة ...تسحّ على القرطاس سحّ ذنوب

أيا فوز لو أبصرتنى ما عرفتنى ...لطول نحولى بعدكم وشحوبى

وأنت من الدنيا نصيبى فإن أمت ...فليتك من حور الجنان نصيبى

أرى البين يشكوه المحبون كلهم ...فياربّ قرّب دار كلّ حبيب

وعادت، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد، وقد ظل يهتف باسمها وحبها حتى وافته منيته سنة مائة واثنتين وتسعين. ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض الرياض، وقد اعتراه ضعف شديد، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه، وهو لا يكاد يرفعه ضعفا، وأنشأ يقول:

يا سقيم الجسم من محنه ...مفردا يبكى على شجنه

كلما جدّ البكاء به ...دبّت الأسقام فى بدنه

ثم أغمى عليه، وأقبل طائر فوقع على الشجرة، وجعل يغرّد، فسمع تغريده، وفتح عينيه، وقال:

ولقد زاد الفؤاد شجى ...طائر يبكى على فننه

شفّه ما شفّنى فبكى ...كلّنا يبكى على سكنه

ثم تنفس تنفسا مديدا فاضت فيه نفسه.

وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذرى طاهر نقى وأنه يمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعانى والخواطر حتى لكأنما يستمد من معين فى نفسه لا ينضب. وكان يعمد أحيانا إلى شئ من صور البديع، غير أنها تأتى عفوا، ولا تؤثر أى تأثير فى قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفع.

المجون والزندقة:

كثر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر فى هذا العصر كثرة مفرطة، وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة، ١- فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيما. **وسبب ثان** يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التى كأنما كانت أسواقا للعبث. وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلا يصور- عند أبى نواس وأضرابه-انحطاطا خلقيّا شنيعا.

وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجوارى والإماء، مما أدّى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة، وكن مختلفات الأجناس، وكثيرات منهن كنّ قد نشّئن على اللهو والمجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة.

والذى لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعا لهذا العصر فى الفسق والمجون، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها، وكان مما أعدّ لذلك دار نخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بنى أمية، وهى دار ابن رامين، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سعدة وربيحة وسلامة الزرقاء، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشراعة بن الزّندبوذ، ونظموا فيهن كثيرا من الأشعار المادية التى لا تخلو أحيانا من الفحش. ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من المجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد.

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة فى هذا الفساد الخلقى، يقودهم الخاركىّ، وفيه يقول أبو نواس: «ما مجنت ولا خلعت العذار حتى عاشرت الخاركى فجاهر بذلك ولم يحتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكنا مسلكه، ونحن ومن يذهب مذهبنا عيال عليه». وكان طبيعيّا أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقى إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها فى عهد المهدى ومن تلاه من الخلفاء، يتقدمهم أبو نواس. ومن مجّانها المشهورين الرّقاشى، يقول أبو الفرج: «كان ماجنا متهاونا بمروءته ودينه، وقصيدته التى يوصى فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة فى الناس، مبتذلة فى أيدى الخاصة والعامة وهى التى أولها:

أوصى الرقاشىّ إلى إخوانه ...وصيّة المحمود فى ندمانه»

ويقول ابن المعتز إنها كانت فى الغلمان وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب. وقد اتسعوا فى الحديث عن الخمر ورائحتها ونفحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرنها. وتعرضوا طويلا للرهبان والراهبات وزنانيرهم.

ويروى أن المهدى شهد على أنه زنديق، فأمر بضربه ثلاثمائة سوط على أن يقرّ بالزندقة، فقال: والله ما أشركت بالله طرفة عين، فقال له المهدى: فأين قولك:

اسقنى واسق خليلى ...فى مدى الليل الطويل

قهوة فى ظل كرم ...سبيت من نهر بيل

فى لسان المرء منها ...مثل طعم الزّنجبيل

قل لمن يلحاك فيها ...من فقيه أو نبيل

أنت دعها وارج أخرى ...من رحيق السّلسبيل

تعطش اليوم وتسقى ...فى غد نعت الطّلول

فقال للمهدى: كنت فتى من فتيان قريش، أشرب النبيذ، وأقول ما قلت على سبيل المجون. والله ما كفرت بالله قط، ولا شككت فيه، فخلّى سبيله ورقّ له. وأمثال آدم كانوا كثيرين. ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والمجون وهم حماد عجرد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس.

الزهد:

هذه الصفحة التى صورناها من شعر المجون والزندقة كانت تقابلها صفحة رائعة من شعر الزهد، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع، ومن حولهم العامة، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده، مؤمنة بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذى الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا ينبغى أن تكون دار زاد لدار المعاد. وما بنى الوعاظ والنساك من المحدثين يزجرونهم عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن العاقل من عرف أن الناس سفر وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم مقيم، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدما كل ما يستطيع من الباقيات الصالحات.

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون فى وعظهم وقصصهم أبياتا وأشعارا كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم، ومنها ما ينشئونه إنشاء، فمن ذلك ما يروى عن صالح المرى القاصّ العابد من أنه كان كثيرا ما ينشد فى قصصه ومواعظه:

فبات يروّى أصول الفسيل ...فعاش الفسيل ومات الرّجل

وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث فى مجالسه عن الموت، حتى لتكاد تخنقه العبرات، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل محدود ونفس معدود، وعما قليل يصبح الإنسان ترابا فى تراب، كمن سبقوه، فأولى له أن يتعظ ويعتبر، يقول :

أتيت القبور فناديتهـ ...نّ أين المعظّم والمحتقر

وأين المدلّ بسلطانه ...وأين المزكّى إذا ما افتخر

تفانوا جميعا فما مخبر ...وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتغدو بنات الثّرى ...فتمحو محاسن تلك الصّور

فيا سائلى عن أناس مضوا ...أمالك فيما ترى معتبر

وممن كان يكثر من إنشاد الشعر فى مواعظه سفيان بن عيينة وسفيان الثورى.

وكان من الشعراء الخلعاء المجان من يقلع إقلاعا عن غيه، فيكثر من أشعار الزهد مكفّرا بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة، ومن خير من يمثّل ذلك محمد ابن حازم، وكان ينغمس فى اللهو والمجون، حتى إذا بلغ الخمسين من سنّه آلى على نفسه أن لا يشرب كأسا ولا يسير فى طريق

غواية، وأخذ يكثر من شعر الزهد حاضّا على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفانى بمثل قوله :

ومنتظر للموت فى كل ساعة ...يشيد ويبنى دائما ويحصّن

له حين تبلوه حقيقة موقن ...وأفعاله أفعال من ليس يوقن

وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد، بل يكتفون من العيش بالكفاف، وإن عرضت عليهم وظيفة أبوها حرصا على دينهم ورفضا لدنياهم، وممن اشتهروا فى هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض، وله فى الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله :

عش ما بدا لك، قصرك الموت ...لا مهرب منه ولا فوت

بينا غنى بيت وبهجته ...زال الغنى وتقوّض البيت

وفى كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة، مما دفع لظهور مقدمات التصوف فى هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهى الذى يتجرد عن كل مادة وحسّ والذى يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق، ومن أروع ما يصوّر ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة :

أحبّك حبّين: حبّ الهوى ...وحبّا لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حبّ الهوى ...فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له ...فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فيذا ولا ذاك لى ...ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وهى تميز بين حبين: حب الله شكرا لإنعامه المتواصل على الإنسان فى دنياه، وحبه لجماله وجلاله القدسى الذى رفعت الحجب والأستار بينها وبينه، وهو الحب الصوفى .

محاضرة ١٣

شعراء العصر الثاني :

البحترى

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد؛ طائىّ الأب شيبانىّ الأم غلب عليه لقب البحترى نسبة إلى عشيرته الطائية بحتر، ولد سنة ٢٠٤ للهجرة بمنبج إلى الشمال الشرقى من حلب على الطريق المؤدية منها إلى الفرات، وقيل: بل ولد بقرية تجاورها تسمّى «زردفنة». واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه فى بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته أو كما يقول ابن خلكان من أصحاب البصل والباذنجان، وامتد به طموحه فتجاوز به بلدته إلى بلاد أكبر من حولها، إذ نراه ينزل حلب، وهناك تعرّف على علوة بنت زريقة التى شغفته حبّا، وظلت دار علوة قائمة بحلب، حتى عصر ياقوت إذ يقول: «وفى وسط البلد «حلب» دار علوة صاحبة البحترى». وقد يدل ذلك على يسار الذفافى وأنه شيد لها دارا فخمة. وظلت ذكراها لا تبرح ذاكرة البحترى حتى الأنفاس الأخيرة من حياته. واتسع برحلاته إلى حمص، وكأنما كان السّعد معه على ميعاد، فإذا هو يسمع بأن أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم، فعرض عليه شعره، فأقبل عليه، وقال له: أنت أشعر من أنشدنى فكيف حالك، فشكا إليه خلّة، فكتب إلى أهل معرّة النعمان: «يصل كتابى مع الوليد أبى عبادة الطائى وهو على بذاذته"سوء حاله"شاعر فأكرموه» واستقبلوه استقبالا حسنا ووظّفوا له أربعة آلاف .

وكأنما وضع أبو تمام نصب عينى البحترى دستورا قويما لإحسانه صناعة الشعر، بل إن هذا بعض الدستور الذى وضعه؛ إذ لا بد أنه أوصى البحترى وصايا كثيرة حتى يتقن صناعته. وهو فى هذا الجزء من وصاياه ينصحه أن يتخير أوقات إلهامه، ثم يصف له الجودة التى يقوم عليها النسيب والمديح جميعا، مع العناية بدقائق المعانى وجمال الألفاظ والأساليب، ونظن ظنّا أنه حين وجد فى تلميذه حسن الاستجابة، واطمأن إلى أنه شاعر سيكون له شأن، أخذ يعرّفه لا على أهل معرة النعمان فحسب، بل أيضا على ممدوحيه فى حلب والشام والجزيرة والموصل وأرمينية. وكاد محمد بن يوسف الثغرى بطل حروب بابك قديما وحروب الروم حديثا أن يستخلصه لنفسه، وقد ظل يمدحه ويصف بلاءه فى الثغور حتى توفى سنة ٢٣٦ للهجرة، كان قد ترك زوجته فى منبج وأنجب منها ابنه أبا

الغوث فكان كثير الرحلة إلى مسقط رأسه، ويبدو أنه كان يقضى فى وطنه الصيف كله فرارا من حر العراق ولفحه، يقول (١):

نصبّ إلى طيب العراق وحسنها ...ويمنع منها قيظها وحرورها

هى الأرض نهواها إذا طاب فصلها ...ونهرب منها حين يحمى هجيرها

وممن أكثر من مديحهم لعهد المتوكل قائداه عبد الله بن دينار وابنه أحمد، وإبراهيم ابن الحسن بن سهل وله فيه نحو عشر قصائد، وله فى الفتح بن خاقان تسع ، ولا يترك نصرا على ثائر إلا ويدوّنه. وكان بطارقة أرمينية خلعوا الطاعة وفتكوا لسنة ٢٣٧ بيوسف بن محمد بن يوسف الثغرى والى إقليمهم، فوجه إليهم المتوكل جيشا سحقهم سحقا وألقوا عن يدوهم صاغرون، ونوّه البحترى بهذا الانتصار طويلا. وكانت قد حدثت فى أواخر العقد الرابع من القرن أو أوائل الخامس حروب دامية بين قبائل ربيعة: تغلب وشيبان وغيرهما، واستطاع الفتح بن خاقان أن يحقن الدماء بينها وأن يردّها إلى الطاعة، ومن الغريب أن لا تعنى كتب التاريخ بهذا الحدث العناية المنتظرة، بينما نرى البحترى يسجلها، وقد بلغ به الأسى أقصاه إذ يرى هذه القبائل المنحدرة من أب وأصل واحد تفقد ما ينبغى أن يكون بينها من البرّ والعطف، فإذا هى تفزع إلى السيف وإلى القوة والقهر وسفك الدماء، يقول :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها ...بأحقادها حتى تضيق دروعها

تقتّل من وتر أعزّ نفوسها ...عليها بأيد ما تكاد تطيعها

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها ...تذكّرت القربى ففاضت دموعها

شواجر أرماح تقطّع بينهم ...شواجر أرحام ملوم قطوعها

فبعضهم يسفك دم بعض ويده لا تطاوعه، والدماء تفيض والدموع تسيل والرماح تقطع علائق الأرحام. وأعاد المتوكل ووزيره الفتح الأمر إلى نصابه من الأمن والسلم، فأغمدت السيوف وقرّت القلوب الخافقة ونامت العيون المسهّدة. ويثب أهل حمص بعاملهم لسنة ٢٤٠ ويعودون إلى الوثوب والثورة فى سنة ٢٤١ وينكل وكان قد رفع المحنة التى أنزلها أبوه بالعلويين ودفع الأذى عنهم والتعرض لشبعتهم، فأشار إلى ذلك البحترى منشدا :

وآل أبى طالب بعد ما ...أذيع بسربهم فابذعر

ونالت أدانيهم جفوة ...تكاد السماء لها تنفطر

وصلت شوابك أرحامهم ...وقد أوشك الحبل أن ينبتر

ويتوفّى المنتصر بعد ستة أشهر من خلافته ويخلفه المستعين فيستبقى ابن الخصيب فى الوزارة، وسرعان ما يغضب عليه قواد الترك فتستصفى أمواله وينفى إلى جزيرة إقريطش (كريت) وحينئذ نجد البحترى يتنكّر له، ويبالغ فى تنكره إرضاء للمستعين وقواده، فيؤلبهم عليه، ويحثهم–كما مرّ بنا فى الفصل الماضى– على قتله قائلا :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى ...بإفكه المردى وإبطاله

وهو جانب فى البحترى لاحظه بعض معاصريه–كما مرّ فى غير هذا الموضع–إذ تحدثوا عن كفره للإحسان وعدم وفائه، حين يقلب الدهر مجنّه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت، فإنه بدلا من أن يثير ذلك فى نفسه ضروبا من الشفقة والرحمة، يسارع إلى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء ما فى أيديهم من المال والنفع، ويضرب القدماء لذلك مثلا موقفه من الخليفة المستعين إذ كان يمدحه، وينال جوائزه حتى إذا خلعه قواد الترك وتولى المعتز الذى يرتجى نفعه أسرع إليه بقصيدة يمدحه فيها ويهجو المستعين هجاء مقذعا بمثل قوله :

أمرتجع منى حباء خلائف ...توليت تسيير المديح لهم وحدى

تصور جزعه المفرط، ويتوفّى عبيد الله سنة ٢٦٣ ويخلفه الحسن بن مخلد، فيمدحه بقصائد مختلفة شاكيا ضارعا، فيجعل أمره إلى كاتبه السّيبى، ولا يسارع إلى استرضائه، فيشكوه إلى ابن مخلد بحائيته :

لك الخلائق فينا السهلة السّمح ...والنّيل يسلس للرّاجى وينسرح

ولا يكاد يسمعها الحسن حتى يبلغ بالبحترى ما يريد، ويزيل المطالبة عنه.

ويلحّ على ابن بلبل فى قصائد كثيرة أن يأذن له بالرحيل إلى موطنه بمثل قوله :

وأعتقت الرّقاب فمر بعتقى ...إلى بلدى وأنت به جدير

وكان البحترى يأخذ بحظوظ مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية فى عصره، وليس معنى ذلك أنه تخصص فى أحد فروعها، ولكنه كان يلم بها، إذ كانت حلقاتها مفتوحة للصادر والوارد فى جميع

أنحاء العالم العربى حينئذ، ويرمز إلى ذلك فى شعره أننا نراه فيه يعرض لبعض اصطلاحات علم الحديث، إذ يقول فى مديحه لإبراهيم بن الحسن بن سهل :

خلق أتيت بفضله وسنائه ...طبعا فجاء كأنه مصنوع

وحديث مجد عنك أفرط حسنه ...حتى ظننّا أنه موضوع

وكانت قد أخذت تتكوّن فى النقد والبلاغة–كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع–ثلاث بيئات: بيئة محافظة مسرفة فى المحافظة ترى أن الشعر ينبغى ألا يقاس إلا بالمقاييس العربية الخالصة، وهى بيئة اللغويين، وبيئة مجددة مسرفة فى التجديد ترى أن يقاس الشعر بمقاييس البلاغة اليونانية، وهى بيئة المتفلسفة، ممن كانوا يترجمون عن اليونان أو يقرءون ما ترجم عنهم، وبيئة معتدلة، فهى لا تحافظ محافظة اللغويين ولا تجدد تجديد المتفلسفة، بل تقف موقفا وسطا، فهى تقرأ ما يترجم وهى تنظر فيما أثر عن العرب من ملاحظات بلاغية، ثم تحاول أن تنفذ من ذلك إلى مقاييس للبلاغة العربية تزنها موازين دقيقة، وهى بيئة المتكلمين، على نحو ما نعرف عن الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين، وانحاز الشعراء غالبا إلى البيئتين المحافظة والمعتدلة، وقلما انحاز أحد منهم إلى البيئة الثالثة وكانت قد ساءت العلاقة بين البحترى وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر صاحب شرطة بغداد، ونظن ذلك حدث فى بعض فترات عزله عن وظيفته، وسارع البحترى فلمّح إليه فى بعض شعره بما يشبه الذم، وردّ عليه عبيد الله يمدّه صديقه ابن الرومى بأشعار ملتهبة، ويبدو أنهما ندّدا بضعف ثقافة البحترى وأنه لا يعرف فلسفة ولا منطقا، مما جعله يهجو عبيد الله ببائية يقول فيها:

كلّفتمونا حدود منطقكم ...والشعر يغنى عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلهج بال ...منطق ما نوعه وما سببه

والشّعز لمح تكفى إشارته ...وليس بالهذر طوّلت خطبه

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحترى ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين، وأن يتغنى بذلك فى أشعاره، حتى يثبت ولاءه لهم وأنه يقف فى صفوفهم مدافعا عنهم مناضلا بمثل قوله للمتوكل :

شرفا بنى العباس إن أباكم ...عمّ النبىّ وعيصه المتفرّع

إن الفضيلة للذى استسقى به ...عمر وشفّع إذ غدا يستشفع

وأرى الخلافة وهى أعظم رتبة ...حقّا لكم ووراثة ما تنزع

أعطاكموها الله عن علم بكم ...والله يعطى من يشاء ويمنع

ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام، يقول :

افتنّ فيك الناظرون فإصبع ...يومى إليك بها وعين تنظر

يجدون رويتك التى فازوا بها ...من أنعم الله التى لا تكفر

ذكروا بطلعتك النبىّ فهلّلوا ...لما طلعت من الصفوف وكبّروا

حتى انتهيت إلى المصلّى لابسا ...نور الهدى يبدو عليك ويظهر

فلو انّ مشتاقا تكلف فوق ما ...فى وسعه لسعى إليك المنبر

ولعل أهم وزير استصفاه لنفسه الفتح بن خاقان، فله ألف ديوانه الحماسة، وقد عاش نحو خمسة عشر عاما يمدحه منوها بسياسته وحزمه وشجاعته وأناته فى تسديد الأمور، وعونه للضعيف ورده للمظالم ونشره للعدل الذى لا تصلح حياة الناس بدونه وبعد غوره ويقظته وكفايته لحمل أمانة الحكم على خير وجه ممكن، مع تقواه وتواضعه ومع صيانته للثغور وحطمه بجيوشه للثوار والأعداء حطما لا يبقى ولا يذر، ومع أخلاقه الرفيعة التى تتحلّى بها نفسه الأبية، وكان ربما بدر منه ما يجعل الفتح ينصرف عنه. فكان يعتذر له بأشعار رائعة، سبق أن صورناها فى الفصل الماضى. ومديحه

ولعل فى تسجيل البحترى لها ما يؤكد ما قلناه مرارا من أن شعر المديح عند العرب يعدّ فى بعض جوانبه وثائق تاريخية مهمة، وفيها يقول البحترى مصورا زحف ابن دينار بمركبه «الميمون» ومن حوله المراكب تغص بجنوده البحريين الذين محقوا الأسطول البيزنطى وجنوده محقّا :

غدوت على الميمون صبحا وإنما ...غدا المركب الميمون تحت المظفّر

وحولك ركّابون للهول عاقروا ...كئوس الردى من دارعين وحسّر

صدمت بهم صهب العثانين دونهم ...ضراب كإيقاد اللّظى المتسعّر

يسوقون أسطولا كأن سفينه ...سحائب صيف من جهام وممطر

فما رمت حتى أجلت الحرب عن طلّى ...مقطّعة فيهم وهام مطيّر

مشتعلة بين جوانحه، وظل يصدر عنها فى قطع مفردة وفى مقدمات مدائحه من مثل قوله:

وخلاف الجميل قولك للذّا ...كر عهد الأحباب صبرا جميلا

لا تلمه على مواصلة الدّمـ ...ع فلؤم لؤم الخليل الخليلا

على ماء الدموع يخمد نارا ...من جوى الحبّ أو يبلّ غليلا

وكانت لدى البحترى قدرة بارعة فى وصف مظاهر العمران، بما أتيح له من دقة فى التصوير والتعبير، ولم يكد يترك قصرا بناه المتوكل دون أن يصفه موجزا أو مسهبا، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور. ومرّ بنا وصفه الرائع لإيوان كسرى، ومن القصور التى أجاد فى وصفها قصر الكامل الذى بناه المعتز وفيه يقول :

ذعر الحمام وقد ترنّم فوقه ...من منظر خطر المزلّة هائل

رفعت لمنخرق الرّياح سموكه ...وزهت عجائب حسنه المتخايل

وكأن حيطان الزجاج بجوّه ...لجج يمجن على جنوب سواحل

لبست من الذهب الصقيل سقوفه ...نورا يضئ على الظلام الحافل

وقد مضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة وما امتد أمامه من بستان أنيق وما يجرى فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصّبا الحانى. وكان القدماء يعجبون أشد الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين، وفيها يقول البحترى:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها ...والآنسات إذا لاحت مغانيها

تنصب فيها وفود الماء معجلة ...كالخيل خارجة من حبل مجريها

كأنما الفضّة البيضاء سائلة ...من السبائك تجرى فى مجاريها

فرونق الشمس أحيانا يضاحكها ...وريّق الغيث أحيانا يباكيها

إذا النجوم تراءت فى جوانبها ...ليلا حسبت سماء ركّبت فيها

محاضرة ١٤

ابن الرومى

على بن العباس بن جريج، وكان يونانى الأصل كما يشهد بذلك اسم جده، ونراه فى شعره ينسب نفسه إلى اليونان مرارا وقد يسميهم الروم أحيانا من مثل قوله:

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجى ...ومجد وعيدان صلاب المعاجم

وقوله فى مواليه العباسيين:

مولاهم وغذىّ نعمتهم ...والرّوم–حين تنصّنى–أصلى

ولم تكن أمه رومية، بل كانت فارسية، وعلى نحو افتخاره بأصوله من الروم يفتخر بأصوله وخئولته من الفرس، حتى لينسب نفسه إلى ملوكهم الساسانيين، وهى نسبة لم يكن عليها حجاب، فكان كثير من الشعراء ذوى الأصول الفارسيّة يدّعونها، ومن فخره بنسبه العريق–فى رأيه–من قبل أبيه وأمه قوله:

كيف أغضى على الدنيّة والفر ...س خئولى والروم هم أعمامى

وقد ولد لأبويه ببغداد سنة ٢٢١ للهجرة نحيلا دميم الوجه تقتحمه العيون، وظل طوال حياته ينعى على نفسه دقة جسمه وضآلته وقبحه، وله فى ذلك أشعار كثيرة يصرح فيها بدمامته :

شغفت بالخرّد الحسان وما ...يصلح وجهى إلا لذى ورع

كى يعبد الله فى الفلاة ولا ...يشهد فيها مساجد الجمع

ويبدو أن أباه كان على شئ من اليسار، وحقّا توفى فى مطالع حياته، ولكن يظهر أنه ترك للأسرة ما يتيح لها على الأقل كفاف العيش. وكان له ابن آخر يسمى محمدا عمل فى الدواوين الحكومية، كما كانت له فتاة مائت قبل أمها، وابن الرومى فى نحو الخمسين من عمره. على كل حال مكّن يسار هذه الأسرة لابن الرومى أن يتجه إلى التعلم فالتحق ببعض الكتاتيب، وكانت تعنى بتحفيظ القرآن الكريم وتلقين الناشئة النحو وبعض الأشعار والخطب وشيئا من الحساب، فالتهم ذلك كله الصبى، ثم مضى يختلف إلى حلقات العلماء فى المساجد تارة يستمع إلى محمد بن حبيب الراوية المعروف أو إلى زميله ثعلب، وأخرى يستمع إلى بعض المحدّثين أو بعض الفقهاء أو بعض رواة التاريخ والأخبار. وكانت دار الحكمة التى عنى بها الرشيد والمأمون مدّ يده وعينه، وكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضا ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة، وهو لا يزال حدثا فى الكتّاب، إذ تروى له أبيات حينئذ فى هجاء غلام عباسى يسمى جعفرا كان زميلا له، وكأن ذلك كان إرهاصا بأن الهجاء سيغلب عليه طوال حياته. وقد مضى يتخذ الشعر –كلداته–حرفة يتكسب بها، فهو يعرضه على علية أهل بغداد، وكان طبيعيّا أن يعرضه على كبار الموظفين ورجال الدولة وفى مقدمتهم أبو العباس محمد بن طاهر حاكم بغداد منذ سنة ٢٣٧، وأسرة الطاهريين

معروفة كان طاهر بن الحسين قائدا للمأمون وهو الذى قضى على ثورة الأمين، وكان ابنه عبد الله بن طاهر أميرا لخراسان وخلفه عليها ابنه طاهر. وحاول ابن الرومى الزلفى إلى محمد بالمديح، ويبدو أنه لم يكن يتسع فى ثوابه ومكافأته، وكان على علم بالشعر، فأخذ ينقد بعض أشعار ابن الرومى، وغاظ الشاعر الشاب نقده. بل لقد أخذ يحرمه نواله، مما جعل ابن

الرومى يوجه إليه مثل قوله : مدح

مدحت أبا العباس أطلب رفده ...فخيّبنى من رفده وهجا شعرى

ويبدو أنه كان بخيلا، وأن بخله كان السبب الحقيقى فى انصرافه عن الشاعر، متعللا بأنه لا يعجب بشعره، مما جعل ابن الرومى يصبّ عليه سياطا حامية من الهجاء، وهو يعمم فلا يقف بهجائه له عنده وحده، بل يعمّ به أسرة الطاهريين جميعا من مثل قوله :

إذا حسنت أخلاق قوم فبئسما ...خلفتم به أسلافكم آل طاهر

جنوا لكم أن تمدحوا وجنيتم ...لموتاكم أن يشتموا فى المقابر

ولا يلبث يحيى بن عمر العلوى أن ينهض بثورة عارمة فى الكوفة ضد الدولة، ويجند جيشا كثيفا لحرب العباسيين، ويلتقى به محمد بن عبد الله بن طاهر لسنة ٢٥٠، وتدور عليه الدوائر، ويقتل فى ساحة المعركة ويغضب له ابن الرومى غضبا شديدا، ويرثيه بجيمية طويلة، يندبه فيها ندبا حارّا، مصورا حرقة حزنه عليه بمثل قوله:

سلام وريحان وروح ورحمة ...عليك وممدود من الظل سجسج

ويا أسفى أن لا يردّ تحيّة ...سوى أرج من طيب نشرك يأرج

ألا إنما ناح الحمائم بعد ما ...ثويت وكانت قبل ذلك تهزج

، ويسخر منه فى مقطوعات مختلفة من مثل قوله في **السخرية** :

هو الأسد الورد فى قصره ...ولكنه ثعلب المعركه

هجاء سليمان بن عبيد الله بن طاهر حاكم بغداد :

جاء سليمان بنى طاهر ...فاجتاح معتزّ بنى المعتصم

كأن بغداد لدن أبصرت ...طلعته نائحة تلتدم

مستقبل منه ومستدبر ...وجه بخيل وقفا منهزم

تحذير المعتز من الخلافة :

دع الخلافة يا معتزّ من كثب ...فليس يكسوك منها الله ما سلبا

وفرح ابن الرومى بما ناله، فدبّج فيه قصيدة طويلة ، استهلها بالغزل نافذا إلى طريقة جديدة، إذ عرض من خلال وصفه لصاحبته ما فى الحدائق من فواكه شهية، حتى سماها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر دار البطيخ أى حانوت الفواكه، ومضى بعد ذلك فى مديح أبى الصقر مدحا رائعا، غير أنه لما استمع إلى قوله:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ...كلا لعمرى ولكن منه شيبان

ظن أنه يعرّض به، لأنه كان يدعى نسبه من شيبان ولم يكن شيبانيّا حقيقة فقال: هجانى، وراجعه بعض الحاضرين قائلا له: إن هذا من أحسن المدح، ألا تسمع ما بعده:

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف ...كما علت برسول الله عدنان

فقال: أنا بشيبان، وليست شيبان بى، وملأه الغيظ والغضب على ابن الرومى، فقيل له: ألم تسمعه يقول:

ولم أقصّر بشيبان التى بلغت ...بها المبالغ أعراق وأغصان

لله شيبان قوم لا يشوبهم ...روع إذا الرّوع شابت منه ولدان

فاستمر فى غيّه وسوء فهمه، وقال: والله لا أثيبه على هذا الشعر

هجاء ابن بلبل ، يقول ساخرا هازئا به :

تشيبن حين همّ بأن يشيبا ...لقد غلط الفتى غلطا عجيبا؟

وكانت لديه قدرة بارعة على عرض أخيلته فى مثل هذه الأقيسة، فصاعد يستحق مجدا عظيما فوق ما منح من مجد الوزارة الذى أسبغ عليه بفضل خزمه وحسن تدبيره، وما مثل الوزارة بالقياس إليه إلا مثل العقد فى الجيد الجميل جمالا يفوقه، بل مثل الثوب يضفى على الجسد الفاتن. ويجمع بين جمال الخلقة والأخلاق فى بعض ممدوحيه وينفذ إلى هذه الصورة البديعة:

كلّ الخصال التى فيكم محاسنكم ...تشابهت منكم الأخلاق والخلق

كأنكم شجر الأترجّ طاب معا ...حملا ونورا وطاب العود والورق

فهم مثل شجر الأترج يطيب عوده وورقه وزهره وثمره، طيب على طيب، وكثيرا ما تلقانا مثل هذه الأخيلة الدقيقة فى مديحه كقوله فى بعض ممدوحيه:

أوفى بأعلى رتبة وتواضعت ...آلاؤه فأحطن بالأعناق

كالشمس فى كبد السماء محلّها ...وشعاعها فى سائر الآفاق

ومن قوله فى رثاء ابنه الثالث:

أبنىّ إنك والعزاء معا ...بالأمس لفّ عليكما كفن

ما فى النهار–وقد فقدتك–من ...أنس ولا فى الليل لى سكن

ما أصبحت دنياى لى وطنا ...بل حيث دارك عندى الوطن

ويكثر العتاب فى ديوان ابن الرومى، وقصيدته فى عتاب أبى القاسم التوّزى الشطرنجى مشهورة، ومرّ بنا فى الفصل السالف قطعة بديعة منها فى وصف لعب أبى القاسم بالشطرنج، وكان أمهر معاصريه فى لعبه، غير أنا نقف الآن عند عتابه، وقد عرضه عرضا طويلا طريفا، إذ أخذ يذكره بما كان بينهما من صفاء، ثم نشأت بعد ذلك هنوات لا يرضاها الصديق، يقول:

كشفت منك حاجتى هنوات ...غطّيت برهة بحسن اللقاء

تركتنى ولم أكن سيّئ الظّ ...نّ أسئ الظنون بالأصدقاء

قلت لما بدت لعينىّ شنعا ...ربّ شوهاء فى حشا حسناء

ولابن الرومى غزل كثير يأتى به مستقلا تارة، وتارة فى مقدمات قصائده، وقلما يصوغه بصيغة المذكر مما يدل على أنه لم يكن صاحب غلمان مثل أبى نواس أو حتى مثل البحترى، ومرت فى الفصل الماضى قطع مختلفة له فى وصف العناق وجمال العيون ومن بديع ماله فى وصف الشعر المسترسل حتى مواطئ القدم قوله:

وفاحم وارد يقبّل مم ...شاك إذا اختال مسبلا غدره

أقبل كالليل من مفارقه ...منحدرا لا يذمّ منحدره

حتى تناهى إلى مواطئه ...يلثم من كل موطئ عفره

كأنه عاشق دنا شغفا ...حتى قضى من حبيبه وطره

محاضرة ١٥

المتنبى

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جعفىّ المذحجية اليمنية، ولد سنة ٣٠٣ بحى كندة فى الكوفة، ولذلك قد يقال له الكندى. أما أمه فكانت همدانية، فهو يمنى أبا وأما. وذكر بعض خصومه وهجّائيه أن أباه كان سقّاء، وأضاف بعضهم أن اسمه «عبدان». ولم يعر ابن خلكان هذه الدعوى اهتماما، وهى دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفذّ وحسدا. وكل شئ فى سيرة الشاعر يؤكد بطلانها، فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتّاب أبناء الأشراف، ويبعد أن ينتظم فى سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقّاء يحمل الماء لأهل الحى القاطن به. وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكّرة، وهو فى نحو الثامنة من عمره، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصّبية: ما أحسن وفرتك وشعرك، وفوجئ الصّبىّ بردّه:

لا تحسن الوفرة حتى ترى ...منشورة الضّفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة ...يعلّها من كل وافى السّبال

ولا ندرى هل كان أبوه لايزال حيا أو أنه توفّى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل، ونظن ظنا أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعا. وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكرا فى ديوانه، بينما نجده يرثى جدته وهو فى نحو الثلاثين من عمره رثاء حارا قائلا:

ولو لم تكونى بنت أكرم والد ...لكان أباك الضّخم كونك لى أمّا

وكان أبواه قد توفيا، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة فى سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ فرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفا يسمى هرون بن على الأوراجىّ، ولا نراه يمدح خليفتها ولا حاكمها الأعجمى ولا أحدا من ذوى السلطان، وكأنما وقف حائلا بينه وبينهم ما رآه بأم عينه من فساد الحكم وتسلط الحكام الأعاجم على العرب، ويتألم لما أصابهم من ذلك وهوان، ويفعم صدره بمشاعر العروبة، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصيح من أعماقه:

إلى أى حين أنت فى زى محرم ...وحتى متى فى شقوة وإلى كم؟

وإلا تمت تحت السيوف مكرّما ...تمت وتقاس الذلّ غير مكرّم

فثب واثقا فى الله وثبة ماجد ...يرى الموت فى الهيجا جنى النّحل فى الفم

وهو يستحثّ نفسه والعرب من حوله أن يخلعوا زىّ المحرمين بالحج، يريد زىّ الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منازلة لا تبقى منهم ولا تذر. ويبئس ممن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولّى وجهه نحو بوادى الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب فى طرابلس واللاذقية، وهو لا يكفّ عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يرعون للعرب حرمة ولا عهدا ولا ذمة، ويصيح فى قومه:

وإنما الناس بالملوك وما ...تفلح عرب ملوكها عجم

لا أدب عندهم ولا حسب ...ولا عهود لهم ولا ذمم

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذلّين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العسف والقهر. ويمضى فى دعوته وثورته فى بوادى الشام من اللاذقية إلى بعلبك، ويحسّ فى أهل «نخلة» بالقرب من بعلبك تواكلا وتخاذلا وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهدرة، فيستثيرهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها:

ما مقامى بأرض نخلة إلا ...كمقام المسيح بين اليهود

عش عزيزا أومت وأنت كريم ...بين طعن القنا وخفق البنود

واطلب العزّ فى لظى ودع الذ ...لّ ولو كان فى جنان الخلود

أنا ترب النّدا وربّ القوافى ...وسمام العدا وغيظ الحسود

أنا فى أمة تداركها اللّ ...هـ غريب كصالح فى ثمود

وكان تشبيهه لنفسه فى القصيدة بالمسيح وبالنبى صالح سببا فى أن يتهمه بعض معاصريه بادعائه النبوة، وبالغوا فزعموا أنه ادّعى لنفسه قرآنا ذكروا بعض فقر منه، وكل ذلك غير صحيح، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين. أما لقبه المتنبى فهو الذى لقب نفسه به، أو لعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به، رمزا لعبقريته الشعرية وأنه يأتى فى أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة. وهو يضع فى البيتين الثانى والثالث دستور العرب على مرّ التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم فى ساحة الشرف والنضال، ولا حياة بدون العزة والكرامة. وإن العربى الحرّ ليفضّل العز فى الجحيم على الذل فى الفراديس. ويترك قرية نخلة إلى

بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، ويقود ثورة ضارية، وكان لا يزال فى العشرين من عمره.

دعوته إلى الثورة مستنهضا همم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله:

لا يعجبنّ مضيما حسن بزّته ...وهل يروق دفينا جودة الكفن

وقوله:

ذلّ من يغبط الذّليل بعيش ...ربّ عيش أخفّ منه الحمام

من يهن يسهل الهوان عليه ...ما لجرح بميّت إيلام

وفى أواخر هذا الاضطراب بين ولاة الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه زحف به من حلب، ولقيه الروم وهزموا هزيمة ساحقة، قتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره، وأسر منهم آلاف، وضعت فى أرجلهم الأغلال والسلاسل، وبنى سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم، وسجل المتنبى الموقعة فى ميمية رائعة خاطبه فيها مبتهجا بقوله:

وقفت وما فى الموت شكّ لواقف ...كأنك فى جفن الرّدى وهو نائم

تمرّ بك الأبطال كلمى هزيمة ...ووجهك وضّاح وثغرك باسم

ضممت جناحيهم على القلب ضمّة ...تموت الخوافى تحتها والقوادم

بضرب أتى الهامات والنصر غائب ...وصار إلى اللّبّات والنصر قادم

نثرتهم فوق الأحيدب نثرة ...كما نثرت فوق العروس الدراهم

والمتنبى لا يبارى فى وصفه لوقائع سيف الدولة مع الروم، حتى لكأنما نسمع فى قصائده السيفية قعقعة السلاح، وهى لا شك القطع الأرجوانية الرائعة فى ديوانه، وتوفّيت فى نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أمّ سيف الدولة فرثاها بقصيدة بديعة، وفيها يقول بيتيه المشهورين:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى ...فؤادى فى غشاء من نبال

فصرت إذا أصابتنى سهام ...تكسّرت النّصال على النصال

ونفس عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة–وفى مقدمتهم أبو فراس الحمدانى الشاعر–منزلته، فأخذوا يكيدون له عنده، وأحسّ المتنبى بكيدهم، وأن سيف الدولة يرهف سمعه إليهم، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتابا مرّا بمثل قوله:

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى ...فيم الخصام وأنت الخصم والحكم

إذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا ...أن لا تفارقهم فالراحلون هم

يحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له، وعجيب أمر الناس فإنهم يظلون يحسدون الأديب، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبى، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه. ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبى، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب، بل مدائح المحب المفتون، وإنه ليعلن ذلك فى غير قصيدة من مثل قوله:

مالى أكتّم حبّا قد برى جسدى ...وتدّعى حبّ سيف الدولة الأمم

ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف المعامع، إذ يسوق فيه ألفاظ النسيب والتشبيب والغزل كقوله:

أعلى الممالك ما ينبى على الأسل ...والطّعن عند محبّيهنّ كالقبل

ويصمم على الرحيل، ويرحل إلى دمشق، ويلتقى فيها بأصحاب كافور وأوليائه، فيغرونه بلقائه فى الفسطاط وأنه لابد أن سيقيمه واليا على «صيداء» أو ما يماثلها من بلدان الشام، وكأنما زيّنت نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانيه القديمة فى إقامة الدولة العربية المنشودة. وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله، فيصارحه بمثل قوله:

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ...ولكنها فى مفخر أستجدّه

ويلوّح فى غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية، ولكن دون جدوى، فينتقم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته فى الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هى فى ظاهرها ثناء ولكنها فى باطنها هجاء مرّ من مثل قوله:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا ...لمن بات فى نعمائه يتقلّب

مهما تقدمت بالمتنبى السن ومهما اشتعل عذاره شيبا، بل لكأن شعرات شيبه البيضاء حراب مشرعة لنزال أعدائه، حراب من

ورائها نفس تزمجر، لها أنياب الأسد ومخالبه، ويصور ذلك تصويرا رائعا فى قصيدة مدح بها كافورا سنة تسع وأربعين إذ يقول:

وفى الجسم نفس لا تشيب بشيبه ...ولو أنّ ما فى الوجه منه حراب

لها ظفر إن كلّ ظفر أعدّه ...وناب إذا لم يبق فى الفم ناب

فاليأس المرير الذى ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار. وفى أواخر مقامه بمصر ألمّت به حمّى، فوصف نزولها به فى الظلام ومبيتها فى عظامه وأثرها فى جسمه وصفا رائعا، ولها يقول بيته البديع:

أبنت الدّهر عندى كلّ بنت ...فكيف وصلت أنت من الزّحام

وعرّض فى القصيدة برحيله، فقد أحسّ بإخفاق رحلته إلى مصر وارتحل بليل، وهو يرمى كافورا بشواظ من هجائه على نحو ما نرى فى داليته، وقد مزّق فيها أديمه تمزيقا بمثل قوله:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه ...إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويكاتبه ابن العميد فى سنة ثلاث وخمسين متوددا إليه آملا فى زيارته ويقدم عليه فى «أرّجان» سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلا فى وصفه:

عربىّ لسانه فلسفىّ ...رأيه فارسيّة أعياده

فمفخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه، ويستقدمه عضد الدولة إلى «شيراز» ويمرّ ببستان يسمى «شعب بوّان» ويروعه جماله، غير أنه مع روعته كدّر نفسه أن لا يرى أثرا للعروبة فيه وفيما حوله من ديار، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله:

مغانى الشّعب طيبا فى المغانى ...بمنزلة الرّبيع من الزمان

ولكنّ الفتى العربىّ فيها ...غريب الوجه واليد واللسان

وأروع مدائحه فى عضد الدولة هائيته، وهو يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العربيات فى الشام، وتطغى عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يجسّمه فى فتاة عربية شامية خلبت لبه، ويصور **جمالها وعفتها بمثل قوله:**

كلّ جريح ترجى سلامته ...إلا فؤادا دهته عيناها

فى بلد تضرب الحجال به ...على حسان ولسن أشباها

فيهنّ من تقطر السيوف دما ...إذا لسان المحبّ سمّاها

إنهن عربيات دونهن الموت الزّؤام. وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا، وفى طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه فى أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبى جهل فى بعض الشذاذ من قطاع الطرق، وصرعه هو وابنه وغلمانه، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقرى: مآتم حداد وسواد. وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حارا.

هجاء :

فى كل أرض وطئتها أمم ...ترعى بعبد كأنهم غنم

يستخشن الخزّ حين يلبسه ...وكان يبرى بظفره القلم

والبيت الثانى يحمل سخرية قاتلة فقد كانوا–كما يقول–عبيدا غلاظا لا يعرفون إلا الملابس الخشنة، وقد طالت أظفارهم، وإذا هم يعيشون فى النعيم، يلبسون الإستبرق بل يستخشنونه، ويملئون ديار العرب بغيا وظلما، ومرت بنا أبيات أخرى فى هجائهم، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير. ويكثر الفخر فى شعر المتنبى، وهو طبيعى لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى **مغالبة الزمن** حتى ليقول:

أمثلى تأخذ النكبات منه ...ويجزع من ملاقاة الحمام

ولو برز الزمان إلىّ شخصا ...لخضّب شعر مفرقه حسامى

وفى ديوانه مراث مختلفة، ولكن أهمها مرثيته فى جدته والأخرى التى نظمها فى أم سيف الدولة، وقد مرت الإشارة إليهما، والمرثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير فى الحياة والموت، وفيها يقول:

يدفّن بعضنا بعضا وتمشى ...أواخرنا على هام الأوالى

وفى رأينا أن هذا البيت هو الذى ألهم أبا العلاء قصيدته: «غير مجد فى ملتى واعتقادى». وتسرى **فيه روح تشاؤم** جعلته ثائرا على الزمن والدهر والناس، وهى روح تحبّب أشعاره إلى قارئه، من مثل قوله:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ...وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولّوا بغصّة كلّهم منـ ...ـه وإن سرّ بعضهم أحيانا

وله غزل طريف، وهو فيه مفتون دائما بالبدويات لجمالهن الفطرى وفى ذلك يقول:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية ...وفى البداوة حسن غير مجلوب

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها ...مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يجلو بعض الجلاء شخصية المتنبى الفذة ويرد عنها جملة التّهم التى نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته وحول قرمطيته وعقيدته، وهو قد فرّ مع أبيه من وجه القرامطة حدثا ورحل بسببهم عن الكوفة فى باكورة شبابه، وحاربهم بأخرة من عمره، ومع ذلك يقال إنه قرمطى، ويلقى ظل من الشك على عروبته، مع أن العروبة لم تجد من يفضله لتختاره ترجمانا لها أروع ما يكون الترجمان.